حركة النهضة التونسية

مـــــن

الدعوة إلى السلطة

(كراس إستقرائي)

تأليف : الهادي بريك ـ ألمانيا.

فيفري شباط 2013 ـ جمادى الأولى 1431.

إفتتاح وإهداء

بسم الله الرحمان الرحيم.

الحمد لله رب العالمين حمدا يليق بجلاله وكماله وجماله ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما.اللهم صل وسلم وبارك على المبعوث بالقلم رحمة للعالمين وإماما للمقاومين وللغر المحجلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

برزت إلي فكرة تأليف هذا الكراس في اليوم الذي تحصلت فيه حركة النهضة التونسية على أكثر من 40% من أصوات التونسيين في الإنتخابات التشريعية الأولى (23 أكتوبر 2011) من بعد ثورة الحرية والكرامة (17 ديسمبر 2010 ـ 14 جانفي 2011) مما بوأها إلى قيادة البلاد لأول مرة في تاريخها ولأول مرة في تاريخ البلاد الغابر والحاضر ضمن إئتلاف سياسي. برزت إلي الفكرة بسبب أنه ليس من إلفنا الحاضر أن من يقاوم نظاما بوليسيا قهريا شديد الوطأة مثل نظام المخلوع بن علي .. هو من تجري عليه سنة التداول المكينة في القرآن الكريم ليجمع إلى شرف المقاومة شرفا آخر هو شرف القيادة. ذلك هو جني الحسنيين في الدنيا : حسنى المقاومة بدلا عن الإمعية من جهة وبدلا عن الركون إلى الظلمة من جهة أخرى وحسنى القيادة. ومن جانب آخر فإن تجربة حركة النهضة التونسية ـ كما عشتها يوما بيوم على إمتداد سبعة وثلاثين عاما كاملة (أكثرها في مواقع المسؤولية والقيادة) ـ لجديرة بالدرس والبحث لا بسبب ثرائها فحسب وتقلبها بين الكسب والإكتساب بل بسبب غنيتها الفكرية وطبيعتها الإزدواجية التي بوأتها لتكون حركة غير تقليدية بل حركة إجتهادية تجديدية تحديثية ولا أظن أن للحركة كسبا أزهر من ذلك الكسب إلا كسبا آخر هو كسب المقاومة المدنية السلمية التي أهلتها لأن يرسم التاريخ على هامته أن حركة النهضة مدرسة في المقاومة وليس مجرد مقاوم محترف.

أهدي هذا الكراس المتواضع إلى كسبي تقربا إلى من علم بالقلم سبحانه وزلفى. كما أهديه إلى خير من هدى البشرية قاطبة جمعاء إلى منابع السؤدد سيدي محمد صلى الله عليه وسلم. وإلى أصحابه الذين ما تركوا فجا عميقا إلا أناخوا فيه الرحال هداية للناس ومن تلك الفجوج فج إفريقية الذي هو موطني. كما أهديه إلى والدي ـ عليهما رحمة الله تعالى ـ اللذين لبثا أميين لأتعلم ثم جاعا لأطعم وظمآ لأروى وعريا لأكسى وخافا لآمن. كما أهديه إلى حركة النهضة التونسية كلها بدء برئيسها ومؤسسها الشيخ المقاوم راشد الغنوشي الذي حقن الحركة منذ أول يوم حتى مراحل متقدمة من كسبها بحقنة التحرر الفكري ونبذ التقليد ومعانقة الإجتهاد. كما أهديه إلى شهداء الحركة والمقاومين فيها من الرجال والنساء. كما أهديه إلى أبطال ثورة الحرية والكرامة في تونس ثم في ليبيا ومصر واليمن وسوريا الشهيدة النازفة وإن فجرها ليلوح. كما أهديه إلى ثلاثة رجال هم أكثر من تعلمت عنهم العلم : أولهم الإمام القرضاوي ذلك الأسد الحامي لعرين الأمة فقها ومقاومة وثانيهم الشيخ محمد الغزالي عليه رحمة الله ذلك القلم العربي السليق القح وثالثهم

الدكتور عبد المجيد النجار ذلك الأصولي المتميز.

عناصر الكراس

المحور الأول : مقدمات عامة

الباب الأول : مقدمة أولى

الباب الثاني : منهج المعالجة

الباب الثالث : تونس التاريخ والجغرافيا

المحور الثاني : محاولة إستقرائية جامعة

الباب الأول : لحظات التأسيس ومراحله

لحظة التأسيس الدعوي الأول(1969-1979). أو مرحلة البحث عن الهوية والدفاع عنها.

لحظة التأسيس السياسي الأول(1979-1989). أو مرحلة الدفاع عن الحرية.

لحظة التأسيس للمقاومة(1989-2011). أو مرحلة المقاومة الوسطية المعتدلة.

لحظة التأسيس لدولة الشعب على أنقاض شعب الدولة(2011-2013).

الباب الثاني : قوانين حكمت النشأة والتطور

المحور الثالث : حصائل عامة

الباب الأول : مواقف

الباب الثاني : إنشقاقات

الباب الثالث : رجال ساهموا في صنع الحركة

الباب الرابع : مؤتمرات الحركة

الباب الخامس : رجال دافعوا عن حق الحركة في الوجود

الباب السادس : شهداء الحركة وبعض من فقدائها

الباب السابع : ضبط تاريخي سردي جامع لما ورد في الكراس

المحور الرابع : كلمة الختام

مراجع ومصادر الكراس

المحور الأول : مقدمات عامة

الباب الأول : مقدمة أولى

ليس بين الدعوة وبين السلطة ـ في حقيقة الأمر ـ خصومة على نحو لا تتأدى فيه الدعوة إلا إلى السجون والمنافي بله التصفيات الجسدية. وليس بينهما توادد كذلك ولا حتى تواصل حتمي على نحو لا تتأدى فيه الدعوة إلا إلى صولجان السلطان. التاريخ ينبئنا بالأمرين سواء بسواء. وليس الغالب هو ـ كما تتوهم كثير من الأدبيات الإسلامية ذاتها ـ إنقطاع حبال الود بينهما إنقطاعا لا وصل فيه ولكن التلازم ليس مشروطا بسبب أن السلطة ـ طلبا وقرارا ـ معركة ضارية فيها ضحاياها وأسراها ولكنها بأسلحة تقليدية. وليس من اللزوم كذلك أن تخطط الدعوة من أول يوم من أيام مهدها لإعتلاء عرش السلطان إذ المسافة في ذلك اليوم تبدو أفقا بعيدا تضرب له أكباد الإبل عقودا طويلة بل قرونا. وقد لا تنشأ الدعوة سياسية بالكامل ولا حتى ذات بعد سياسي ولكن تشغب عليها التطورات فتتسيّس بالضرورة. حتى عند الدعوات التي تخطط لذلك من أول يوم من أيام مهدها فإنها عادة ما تعدّ السلطة وسيلة من وسائل إنفاذ مشروعها الثقافي الرسالي وبذلك يخضع خيار السلطة إلى ميزان المصالح والمفاسد أو ميزان العدل والجور بمثل ما فعل النبي الكريم يوسف عليه السلام.

هي تعبيرات تختلف مبانيها ولكن عائلتها الدلالية واحدة. فإن قلت : حركة النهضة من الدعوة إلى السلطة ما جانبت صوابا. وإن قلت : حركة النهضة من الجماعة إلى الحزب فما جانبت صوابا كذلك. بل ما جانبت صوابا البتة لو قلت : حركة النهضة من القبر إلى العرش أو من القبو إلى الصولجان.

تلك نقلات كبيرة ومهمة وتترنح بالدلالات الثقافية والسياسية بل تنوء بها نوء. تلك نقلات لم تكن مفاجئة ولكنها سريعة نسبيا وهي جديرة بالدرس من لدن العقلاء إذ التاريخ مرآة عاكسة يحتاجها المجتمع بمثل ما يحتاج سائق السيارة إستراق نظرات من حين لآخر يحدج بها المشهد من خلفه. قد يقتصر ذلك السائق على مرآة عن يمينه وأخرى عن شماله فضلا عما ينبسط أمامه ولكنه يظل في ضيق يودّ له أنه يطلع على ما يجري خلفه.

حركة النهضة الإسلامية التونسية ملف إصلاحي سياسي جامع لا مناص من معالجته بمناسبة صعودها فوق ركح الحكم لأول مرة في تاريخها ولأول مرة كذلك في التاريخ التونسي الحديث ومما يزيد الأمر إلحاحية حدوث ذلك ثمرة من ثمرات ثورة 14 جانفي 2011 بحسبانها مفجر الربيع العربي من جهة ومن جهة أخرى إنجازا إستحقاقيا من أولى الإنجازات الإستحقاقية لتلك الثورة أي أول إنتخابات ديمقراطية حقيقية ليوم 23 أكتوبر من عام الثورة ذاته بما أهل البلاد لأول مرة لولوج عصر النهضة والقطع مع الماضي الإنحطاطي الإستلابي الذي ظل مخيما عليها لأحقاب سحيقة طويلة حالكة. تلك الأوّليات في التاريخ التونسي من جهة وفي تاريخ الحركة من

جهة أخرى حرية بأن توضع فوق ميزان المعالجة لأغراض دراسية تساعد على حسن الفهم وصحته خطوة أولى وعلى مقاربة أدنى إلى الموضوعية فيما يتعلق بتصور الغد القريب أو المتوسط خطوة تالية. ألسنا صنيعة سلف غابر بأقدار معتبرة مهما تقدمت معالجاتنا التحديثية؟ ألسنا نصنع خلفنا بأقدار معتبرة بمثل ذلك مهما طوحت بهم معالجاتهم التجديدية؟ بلى. كسوب الإنسان بين أبعاده التاريخية الثلاثة (الماضي والحاضر والمستقبل) لا ينفك بعضها عن بعض بالكلية وإنما تترسب الإجتهادات وتتراكم لتصنع الحضارة والرقي والتقدم والمدنية بخطى إصلاحية تتأبى عن المغامرات غير مأمونة العواقب.

المأمول هو دراسة هذه التجربة من حيث أنها ظاهرة إجتماعية معقدة مركبة بين التاريخ وبين الدين من جهة وبين الإسلام وبين الحياة والسياسة من جهة أخرى وبين تونس المعاصرة بتجربتها البورقيبية المثيرة والمتاخمة جغرافيا وثقافيا للشطآن الشمالية للمتوسط وبين تونس التقليدية بتجربتها الزيتونية والمتاخمة ثقافيا لا جغرافيا للتجربة الإسلامية الطويلة والعريقة من جهة ثالثة . جزء كبير من كسب الحركة يقطن اليوم ذاكرة التاريخ. والحدث عندما يصبح تاريخا تنتقل ملكيته مباشرة حقا طبيعيا إلى الناس.

الباب الثاني : منهج المعالجة

المقصد الأسنى من هذه المعالجة هو إستنباط القوانين التي خضعت لها الحركة على إمتداد تجربتها التي تعيش اليوم عقدها الخامس ولا عبرة بحديث جاد عن الحركة دون محاولة إستنباطية لتلك السنن الماضية المطردة بمنهاج إستقرائي جانح نحو الجماع قدر الإمكان ومعرض عن المشاهد الإجتزائية والإبتسارية التي عادة ما يتخذها بعض السياسيين والإعلاميين عشوائيات يفسرون بها حركة التاريخ. ذلك مقصد لا بد من التوسل إليه بمنهاج من جنس منهاجه أي : حسن قراءة للحظات التأسيس الأولى من جهة وبمثل ذلك للحظات التأسيس للتحولات الكبيرة في تاريخ الحركة من جهة أخرى وللمناخات المحيطة بتلك اللحظات رصدا للعلاقة بين اللحظات وبين المناخات من جهة ثالثة. تحاول المعالجة توفير حركة وصل وفصل في الآن ذاته بين الإستقراء الجامع وبين الإستنباط الصحيح قدر الإمكان. أظن أن شرطا أخيرا لا بد منه تأمينا لهذه العملية المسؤولة. هو شرط يجمع بين المعرفة الصحيحة معايشة للحياة الداخلية للحركة وبين الإلتزام بالحق والعدل والموضوعية. أظن أن أقدارا كافية من ذلك الشرط المزدوج لا يعدمها قلم صاحب هذه المحاولة. ثم يظل الحوار حقلا ثرا ثريا لا بد من ولوجه لتنسيب هنا وتعديل هناك وتعميق هنالك. حوار لا بد له أن يعقب المحاولة. حوار لا يملك أحد مصادرته ما إلتزم المسؤولية. إذ لا قيمة لحرية سرعان ما يتنصل صاحبها من المسؤولية ولا معنى لمسؤولية لا يكفل لصاحبها قدر كاف من الحرية. أطمح إلى أن يكون الحوار هنا لا قيد عليه إلا قيدين : قيد يحصره في أهله وأهل الحوار هم الذين تهيأت لهم أسباب كافية لمعرفة الموضوع ولا عبرة بحوار يخوض الناس فيه مع الخائضين فيقفون ما ليس لهم به علم. وقيد يحصره في محله ومحل الحوار هو إخضاع التجربة الجامعة لحركة النهضة التونسية إلى النخل الموضوعي بمناسبة

صعودها فوق ركح الحكم لأول مرة ومن ذا يتأسس حق الناس في التقويم الإيجابي من حيث منهاجه وليس بالضرورة من حيث حصيلته. ولا ريب في أن إنتماء تلك الحركة بتجربتها العريقة إلى الزمن الإسلامي الجديد ـ الذي يبدو أنه ثمرة أولى ناضجة من ثمرات الربيع العربي المنداح شرقا وغربا ـ عامل آخر من عوامل مشروعية هذه المعالجات.

الباب الثالث : تونس التاريخ والجغرافيا

لا يليق بهذا الكراس الإستقرائي للتجربة النهضوية الحديثة في تونس أن يغفل عن إدراج نبذة صغيرة عن الموطن الذي إحتضن تلك التجربة فكان لها البطن الحامل والحلمة المرضعة والحجر الدافئ.

تونس ـ المسماة إفريقية من قبل أو هي بالأحرى جزء من إفريقية ـ يرجح أن تكون مؤنسة لأهلها وبذا سميت (تؤنس) ثم أصبحت ـ تسهيلا للنطق من جهة وعلى لهجة عربية أخرى تستغني عن الهمز من جهة أخرى ـ تونس. كانت مهدا لحضارات كثيرة منها : الفينيقية والبونيقية والبربرية والقرطاجنية والرومانية والوندالية. مساحتها 163610 كلم مربع وعدد سكانها زهاء عشرة ملايين وهي المنطقة البارزة في أقصى شمال إفريقيا ضمن الحوض الجنوبي للمتوسط. صغيرة الحجم بين بلدين منداحين جغرافيا إنداحا كبيرا (الجزائر غربا وليبيا شرقا). بلد سياحي كبير بسبب مناخه المتوسطي وإمتداد سواحله المتوسطية على مئات الأميال. بلد التضاريس الأرضية السهلة والمنخفضة في الجملة. بلد التين والزيتون والنخيل وأسماك البحر (والسمك عند التونسيين حوت بأنواعه كلها). بلد الإنسجام التام أو شبه التام إذ التونسيون كلهم ـ تقريبا ـ مسلمون (أشاعرة بالإنتماء الكلامي) يتديّنون على طريقة المذهب المالكي الذي نقله إليهم علي بن زياد ـ تلميذ مباشر عن إمام دار الهجرة ـ وتلقاه منه الإمامان : أسد إبن الفرات وسحنون. وكلهم عرب إذ تعرب أجدادهم البربر بالكامل في عهد الخليفة الراشد الخامس عمر إبن عبد العزيز (الدولة الأموية وهو حفيد الفاروق الأشم). سوى أقلية من الإخوة الأباضية في بعض مناطق الجنوب والأباضية بدورها معدودة ضمن المذاهب السنية المعتدلة أو بعض الإخوة من الأحناف. كما تحتضن تونس بضعة آلاف من اليهود الذين يستقر أكثرهم في جزيرة جربة الجنوبية الساحلية وهي معروفة بـ(الغريبة) محجا شهيرا لليهود من شتى أصقاع الأرض وكذلك عددا صغيرا جدا من النصارى أو المسيحيين ولم تعرف البلاد توترات البتة بين مختلف تلك الإنتماءات الدينية أو المذهبية.

بدأ الفتح الإسلامي لتونس عام 29 هجرية أيام الخليفة الراشد الثالث ذي النورين عليه الرضوان فتم فتح قابس بعد دحر الروم وتوالت الفتوحات بمثل ما توالت الإرتدادات. وفي العهد الأموي قدم الصحابي عقبة إبن نافع وشيّد القيروان (عام 50 هجرية) في منطقة جغرافية تساعد على قيادة الفتوحات التي يواجهها الرومان بتكافئ عسكري. وفي عام 78 هجرية أمر حسان ببناء الزيتونة ثم توسعت وتهيأت على صورتها الراهنة. وكانت تونس (وإفريقية عامة) قاعدة عسكرية خلفية إنطلق منها الفاتحون في إتجاه أروبا (موسى إبن نصير وطارق إبن زياد). وفي العهد الإسلامي

ذاته نشأت حضارات كثيرة منها : الأغالبة والعبيديون (وهم فاطميون أسسوا المهدية عام 303 هجرية) والصنهاجيون والموحدون والحفصيون. ثم كان الموعد مع الحروب الصليبية المعروفة أو بالأحرى حروب الفرنجة عام 668 هجرية وجاء دور العثمانيين لتحرير البلاد من الأسبان عام 981 هجرية ثم جاء الحسينيون. شهدت البلاد في تلك الأثناء مشروعا إصلاحيا كبيرا قاده الوزير خير الدين التونسي وضمنه كتابه الشهير (أقوم المسالك).كما شهدت ثورة كبيرة هي ثورة علي بن غذاهم الشهيرة. وإنتصب الإحتلال الفرنسي عام 1881 ميلادية. نشأت مقاومات عسكرية وسياسية. كان أكبر حلقاتها الحزب الحر الدستوري القديم على يد الفقيه الشهير عبد العزيز الثعالبي في 1920م . تفاعلت مقاومات من منطلقات غير متجانسة بالكلية (مقاومات زيتونية ومقاومات عروبية يوسفية). إختارت فرنسا المحامي المعاصر الذكي الحبيب بورقيبة الذي تخرج من جامعاتها وتشرب من ثقافتها ليكون بديلا محتملا سيما إذا تواصلت المقاومات عسكرية وسياسية وإنقلب بورقيبة في مؤتمر قصر هلال في 2 مارس 1934 على الثعالبي وحزبه وإستبدل الإسم ليكون إشتراكي المنزع : الحزب الإشتراكي الدستوري وإنقسم الصف المقاوم إلى : جماعة الأمانة العامة بزعامة صالح بن يوسف الذي لم يصبر عليه بورقيبة طويلا إذ أرسل إليه ذراعه الغليظة البشير زرق لعيون ليغتاله في مدينة فرانكفورت الألمانية في 12 أوت 1961. وجماعة الديوان السياسي بزعامة الحبيب بورقيبة نفسه. شهدت المقاومة ضد المحتل حلقات أخرى مهمة من مثل حلقة 9 أفريل 1938 ثم وقع إغتيال فرحات حشاد في 5 ديسمبر 1945 وفي تلك الأثناء 1946 تأسس الإتحاد العام التونسي للشغل ليكون أول وأعرق وأكبر منظمة عمالية نقابية إفريقيا وعربيا وإسلاميا وهو حلقة متقدمة جدا في التاريخ وفي الفعل المقاوم ومن مؤسسيه الشهيرين : محمد علي الحامي والشهيد حشاد نفسه ومحمد الصالح النيفر والفقيه الشهير إبن عاشور. ثم كانت آخر حلقة من حلقات المقاومة الشعبية في 18 جانفي 1952. ومن بعدها لك أن تقول : إنتصر الجناح الفرنسي البورقيبي " المعاصر " على خصيمه الزيتوني العروبي اليوسفي وخضعت البلاد لما سمي بالإستقلال الداخلي ثم إلى الإستقلال التام بين عامي 1955-1956. ولم يعد يتسع المشهد التونسي إلا لزعيم واحد هو الحبيب بورقيبة وكان إعلان الجمهورية والدستور والقضاء على الحكم الحسيني. وكان من أوائل أعمال بورقيبة حيلولة دون نشوء جمعيات أو أحزاب تقض مضجعه وهو في مهده الأول سن قانون الجمعيات في 7 نوفمبر 1959 وهو القانون الذي ظل سيفا مسلطا على الناشطين والفاعلين على إمتداد حقبات طويلة وبمثل ذلك زور مشروع مجلة الأحوال الشخصية (13 أوت 1958) الذي أعده الشيخ جعيط ليدسّ فيه ما يخالف الفصل الأول من الدستور التونسي لعام 1959 (تونس دولة حرة مستقلة ذات سيادة العربية لغتها والإسلام دينها والجمهورية نظامها) مخالفة تامة وذلك من خلال إجازة التبني بتبعاته المتعلقة بالإرث وغير ذلك.

المحور الثاني : محاولة إستقرائية جامعة

الباب الأول : لحظات التأسيس ومراحله الثلاث

لحظة التأسيس الدعوي الأول : لك أن تسميها مرحلة البحث عن الذات أو مرحلة الدفاع عن الهوية العربية الإسلامية للبلاد. وهي تمتد من 1969 حتى 1979 ولك أن تقسمها كذلك إلى مرحلتين : مرحلة البحث العام عن تلك الذات الفقيدة وذلك حتى 1973 حيث أسفرت التجربة عن طرح سؤال أفضى إلى إجابة محددة تواضع عليها المؤسسون. ومرحلة تحقيق الذات من بعد الظفر بها وذلك حتى أول مؤتمر للجماعة في 1979.

لحظة التأسيس السياسي الأول : لك أن تسميها مرحلة الحزب السياسي الجامع أو مرحلة الدفاع عن الحرية . وهي تمتد من 1979 حتى 1989 وهي مرحلة غنية بالتحولات الفرعية ضمن ذلك التحول الكبير أي من الهم الدعوي العفوي العام إلى الهم السياسي سقفا أعلى من سقوف ذلك الهم الدعوي الأول.

لحظة التأسيس لمدرسة المقاومة الحقيقية : أو مرحلة تأسيس المقاومة المدنية الوسطية المعتدلة في زمن نفقت فيه أسواق المعالجات التي سميت جهادية. هي مقاومة الجريح من لسعات القهر لا مقاومة الطريح فوق أرائك العز وبسط الزهو (لك أن تسميها مرحلة الإبتلاء الحقيقي أو مرحلة الخضوع لإمتحان الحياة الأكبر والظفر بأغلى شهادات المقاومة ونياشين مدرسة فقه الحياة وهي تمتد من 1989 حتى فجر الثورة المباركة 14 يناير 2011).

لحظة التأسيس للدولة. هي لحظة جديدة ومرحلة جديدة. بدأت إرهاصاتها ولكن الحكم عليها لا يزال مبكرا جدا.

التأسيس الدعوي الأول
أو مرحلة البحث عن الذات

هي لحظة تأسيسية ستكون لحظة فارقة بحق . هي لحظة وضعت بييضتها الأولى في ذات يوم من أيام صائفة عام 1969 بجامع الزيتونة على هامش حلقة من حلقات التعارف بين الشباب الطامح إلى التدين في إثر درس من الدروس العلمية التقليدية التي يلقيها آنذاك أحد مشايخ الزيتونة ممن لم تلتقطه دبابة الحداثة المنتشية يومها بين فكيها وهو الشيخ أحمد بن ميلاد عليه رحمة الله سبحانه. هي لحظة بحث عن الذات في ركام من الشعور بالضياع فما كانت الذات يومها محددة الهوية ليتسنى إسترجاعها من جديد وما كان ذلك الركام ليحفل بالصعاليك الذين يشقون الإلف ويعكفون على طرح السؤال.ضاقت الزيتونة عن ذات فقيدة وبمثل ذلك ضاقت مؤسسات أخرى من مثل جمعية المحافظة على القرآن الكريم. ضاقت المؤسسات فكان الشارع الفسيح العام محضنا لملحمة البحث الشهيرة ولكنه شارع فاء بأصحابه الذين بلغ عددهم اليوم ـ أي عام 1973 ـ ثمانين إلى المسجد مرة أخرى. أجل. هنا علينا إلتقاط القانون الأول وعلينا تأجيل تحليله إلى سطور مواليات من هذه المحاولة.محطة أخرى هرع إليها النفر المؤسسون الذين لا يزيد عددهم عن عدد أصابع اليد الوحدة بل أدنى من ذلك. هي محطة فكرية لا تخلو من وجبات تعبوية بسبب أن صاحبها مفكر لا يكتب إلا بالفرنسية ليؤسس منهاج النهضة الجديدة المعاصرة من رحم الهوية ذاتها للأمة المنشود بعث مجدها التليد مرة أخرى ولكن بعدما أثخنت الجراحات الثقافية الوافدة ـ وبمثلها الموروثة ـ جسمها. هي محطة المفكر الجزائري مالك بن نبي الذي كان يرقب نهضة جديدة بقلم فرنسي المداد عربي الرسالة. كان يلتقيه أولئك النفر على هامش ملتقى فكري سنوي يعقد بالجزائر وهم : راشد الغنوشي وعبد الفتاح مورو وصالح بن عبدالله البوغانمي والفاضل البلدي وإحميدة النيفر. ظل الأمر كذلك زهاء ثلاث سنوات متواليات أي من عام 1970 حتى 1973. كما ستشهد تلك الأيام عودة الشيخ الزيتوني المنفي محمد صالح النيفر من الجزائر ليستأنف إصدار (مجلة المعرفة) التي ستكون أول لسان للجماعة. لنا أن نلتقط الآن معزرا جديدا لذلك القانون ولنا أن نؤجل تحليله إلى سطور قابلات.دعني أبث فيك الذي فيّ لعل الحوار تينع ثمرته : لحظة التأسيس الأولى أو هي نطفة التخليق الأولى كتب عليها ـ لا بل لها بالخلاصة ـ أن تكون مفعمة بالإزدواج. سؤال البحث المهم هو : هل هو إزدواج الخصام أم هو إزدواج التكامل الكفيل بصنع الحضارة والرقي. دعنا نواصل الإستقراء حتى لو وقع منا بعض الإسهاب في جزئياته ليكون ذلك مفضيا إلى إستقراء كلي صحيح الأركان. يفضي بنا الآن ذلك الإستقراء إلى محطة أخرى مهمة هي محطة مزدوجة كذلك. هي محطة سنعبر من خلالها الحدود التونسية لأول مرة. خلاصة هذه المحطة الجديدة والأخيرة في لحظة التأسيس الدعوي الأولى هي طرح

الجماعة المؤسسة الأولى (خلية الثمانين في مسجد بسوسة عام 1973) لهذا السؤال الكبير : دعوة يتعقبها البوليس حتى وهي تلتئم علنا لتلاوة تعاويذ وأذكار وبيانات على شاكلة جماعة الدعوة والتبليغ .. تلك دعوة تستحق منهاجا آخر مغايرا. كان الجواب عابرا للحدود. كان الجواب في بيت الراعي الروحي للحظة التأسيس ـ الشيخ عبد القادر سلامة ـ وبحضور الراعي الثاني الشيخ محمد الصالح النيفر. الجواب هو خط دعوي جديد تكون معالمه هي : السرية ـ أي سرية المؤسسات التنظيمية وليس سرية الرسالة ذاتها وليست كذلك سرية مطلقة في مستوى أعضاء تلك المؤسسات ـ وتقديم التربية الإسلامية الجامعة والمنظمة تحت سقف تنظيمي خلوي ينتقى له الشباب الذين يؤنس فيهم بحث عن الذات. هي تربية جامعة تلبي أبعاد الشخصية المسلمة المعاصرة أي أغذية روحية وأخرى عقلية فكرية وثالثة حركية سياسية حدبا وراء إعداد الشخصية المسلمة المعاصرة الكفيلة ببناء الأسرة المسلمة والمجتمع المسلم والحكومة المسلمة بسبيل الدعوة إلى قيم الإسلام عقديا وفكريا وخلقيا وتعبديا مع بسط للمنهاج الإسلامي الأجمع في أبعاده السياسية والمالية . ذلك هو الأمر الذي عبر بجماعة الثمانين الحدود التونسية لأول مرة وكان العبور في إتجاه جماعة الإخوان المسلمين وتحديدا إستلهاما من فكر مؤسسها حسن البنا. العبور الأول إلى الجزائر لم يكن عبورا للحدود بسبب أنه كان صحبة من لدن نفر قليل عديدهم لمّا تربطهم رابطة العمل المنظم.

في أثناء ذلك نشأت حلقات تأسيسية أخرى من مثل حلقة في جامع سيدي يوسف يستكمل فيه أستاذ الفلسفة راشد الغنوشي ما ضاق عنه الدرس النظامي الرسمي في المعهد الثانوي لطلبة الفلسفة. قصة الفلسفة هذه يمكن أن تكون هي الأخرى محطة من محطات التأسيس أو بييضة من بييضاته أو نطفة من نطفه التخليقية الأولى وذلك بسبب أن الحركة التي تقود السلطة في تونس اليوم ـ ضمن تحالف ثلاثي إسلامي عالماني ـ نشأت نشأة فكرية على خلفية مقاومة المد الغربي فكريا إذ أن مادة الفلسفة في تلك الأيام ـ بحسب ما رضي بورقيبة للدولة الجديدة ـ هي مؤتمر التنصير الذي يتصيد مناطق الضياع الحضاري ومساحات التيه الثقافي ليلتقط شبابا يبحث عن ذاته فلا يجدها في محيطه القريب ثم تشرئب أعناقه إلى وافد يبشر بالعدالة وهل على الأرض من ينبذ مطلب العدالة؟ كان بورقيبه يقود بالدولة حملة تنصيرية جامعة منظمة ولكنه تنصير لفائدة الفرنكفونية الغربية وعاء لغويا وثقافيا ولفائدة اللائكية الفرنسية حضارة. كان المدخل فكريا بإمتياز شديد إذن. هذا المدخل غير التقليدي للدعوة إلى الإسلام سيكون لونا متميزا من ألوان الحركة الإسلامية. ساعدني على مراكمة القوانين والأسباب : الإزدواج بما هو إنفتاح على الآخر من كل الألوان والمشارب إقتباسا. والمدخل الفكري الفلسفي إذ كان المدخل خصاميا مقاوما منذ اللحظة التأسيسية الأولى. والساحة الشبابية بل الساحة الشبابية المثقفة أي ساحة الطلبة وتلاميذ التعليم الثانوي. كلما بدأنا في تجهيز المراكمات لحسن فقه التجربة كان ذلك أيسر لنا عندما ندلف إلى خلاصاتنا وحصائلنا.

في الجامعة التونسية كان هناك حراك كذلك. هو الحراك نفسه. ذلك أن الشاب الذي لقيه العائد من تجربة مزدوجة مخضرمة ـ أي الغنوشي من باريس وقبلها من دمشق وقبلها من القاهرة ـ .. ذلك

أن الشاب عبد الفتاح مورو كان طالبا بالجامعة التونسية. في الجامعة ـ معقل الحداثة من النافذة الغربية والمسرح الذي يرعاه بورقيبة بعينه ليودعه مشروعه الكبير ـ كان بعض الطلبة الأتراك يطالبون بمصلى. رفع الأمر إلى بورقيبة فأذن بمصلى صغير مادام الأمر يتعلق بطلبة أتراك ربما كرم وفادة عربية. ألا ترى من المناسب أن نتوقف هنا قليلا لنلتقط قانونا آخر؟ أجل. تخصيص مصلى صغير في رحم جامعة تونسية منداحة (كان ذلك تحديدا في مبيت باردو) يحتاج إلى إذن رئاسي خاص من بورقيبة! القانون الملتقط هنا هو أن المشروع الإلحاقي الإستلابي الكفيل بصناعة تونس صناعة جديدة بالتمام والكمال هو مشروع جاد ويرعاه صاحبه ولا يعرضه لأي عقبة يمكن أن تعوقه. حتى مصلى صغير في مبيت صغير؟ أجل. لا حظ لمن لم يفقه ذلك البتة أن يفقه التجربة التي نحن بصدد إستقرائها. كلمة أخرى لا بد منها في شأن هذا المصلى " التركي ". لم يكن مصيره سوى الإغلاق إذ أضحى وكرا للمصلين التونسيين من طلبة الجامعة الذين يتعهدهم بورقيبة لحمل مشروعه. عندها يبدو أن الأقدار ترسم شيئا آخر إذ إفتتح الطلبة مصلى جديدا بديلا برأس الطابية.

ومن تلك الحلقات التأسيسية الأولى كذلك القيام من لدن الغنوشي خاصة ببعض المحاضرات والكتابات كلما أتيحت الفرصة. كانت تلك الحلقات كلها تقريبا ـ سيما سيدي يوسف والمحاضرات والكتابات ـ تدور حول معالجة الهم الأوحد في تلك الأيام وهو همّ مقاومة الوافد الفكري الغربي وتطعيم العقل بالبديل القيمي الإسلامي الجامع. المنهاج المتوخى في العملية التطعيمية هو المنهاج الإشكالي الفلسفي (منهاج السؤال الإبراهيمي " أرني كيف تحيي الموتى " و " لا أحب الآفلين " ومنهاج السؤال الموسوي " رب أرني أنظر إليك ") وليس المنهاج التقليني الدعوي الحريص على الحقن أو على التعبئة. لكل حقل أداته ولكل مقام مقاله ولكل عقل مفتاحه.

عرض الغنوشي على بعض رجال الزيتونة تبني هذا المشروع أي حمل مشروع إحيائي جامع تقطع به البلاد مع عهود الضياع الحضاري والتيه الثقافي ولكنهم إعتذروا ومنهم الشيخ الفاضل بن عاشور والشيخ كمال التارزي. وربما عرض الشيخ المستاوي نفسه على النفر المؤسس أو بعضه عرضا سيكون سليل عرض آخر من بعد ذلك بسنوات طويلة. عرض الشيخ المستاوي عليه رحمة الله سبحانه على أولئك النفر أو بعضهم الإلتحاق بصفوف الحزب الإشتراكي الدستوري لمزاولة الإصلاح من داخله ولكن لم يلق العرض آذانا صاغية. الإصلاح من داخل الحزب الذي يستخدمه بورقيبة لتنفيذ جزء كبير من مشروعه التغريبي الإلحاقي الجامع .. أمر لا يستهوي من يبحث عن ذاته خارج المنظومة الرسمية. ما ينبغي أن نحمّل الموقف الرافض أبعادا سياسية ولكنه رفض أدنى إلى الخليقة والسليقة والسجية.

لنا أن نقول الآن بإطمئنان كبير إلى أن لحظة التأسيس الدعوي الأولى تحددت معالمها بجلاء كبير وهي لحظة ستعمر من 1969 حتى أول مؤتمر للجماعة أي عام 1979. معالم لحظة التأسيس الأولى هي بمثل ما تقدم : جماع دعوي فكري عام إزدوجت فيه عناصر ليس بالضرورة أن تكون منسجمة من حيث المنهاج الدعوي حتى لو كانت تستظل بالسقف الإسلامي المعروف. جماع دعوي فكري آوى إليه تحت جناحيه : سلاسة جماعة الدعوة والتبليغ في الإتصال العفوي

المباشر والفردي بالناس وكذلك سلاسة الخطاب الديني الدعوي اللين من جهة. والمسجد مؤسسة لا مناص منها ـ إذ وقع العود إليها بعد فشل التجربة المؤسسية التقليدية أي المحافظة على القرآن الكريم ـ من جهة ثانية. والإنفتاح منذ البداية ـ إنفتاحا تلقائيا مباشرا لم يجد أمامه الأبواب الذهنية موصدة ـ على تجربة فكرية خصبة ثرية لمصلح عصامي لم يكن يومها مندرجا في السياق الدعوي في المخيال الشعبي العام وهو مالك بن نبي ـ مع التنبيه إلى عدم الغفلة عن كون قلمه الدعوي فرنسي المداد إسلامي الرسالة لا بل نهضوي الرسالة ـ من جهة ثالثة. ومن جهة رابعة أخيرة إنفتاح مماثل على التجربة الإخوانية سيما في جماعها العقدي نظرة للإسلام في مقابل تجارب إسلامية كثيرة جدا عدمت مثل ذلك الجماع العقدي وكذلك في منهاجها السلمي الأهلي المدني وتبنيها لمنهاج إصلاحي تحتي يقدم التزكية والتربية والتأهيل والإعداد وكذلك في منهاجها التنظيمي وقوامه الإعداد الحزبي الصارم على خلفية فكرية مفادها أن إستئناف الحياة الإسلامية المغتالة منذ فجر الإسلام تقريبا لا يمر سوى عبر إعداد تنظيمي وفكري جامع كفيل بالمقاومة الندية وليس طفرات سرعان ما تخبو أو يجهز عليها بجرة لسان. ومع ذلك سيظل الجدل الفلسفي مع الذين إلتقطهم الفكر الغربي متواصلا في الكليات والمعاهد ودور الثقافة. هم أساتذة ومعلمون وطلبة وتلاميذ ومحامون وإعلاميون وأطباء ومهندسون وموظفون سامون. ذلك هو السقف الثقافي للمعركة الطاحنة ـ بوسائل غير تقليدية ـ التي ولدت الحركة ـ التي ستقود السلطة من بعد ذلك بأربعة عقود كاملات ـ في رحمها.

هناك أمر ما ينبغي التفريط فيه ومنذ الآن. أمر لا بد من الإمساك بتلابيبه لأنه سيكون حاضرا في المستقبل وبقوة وسيكون صاحب حظ في رصد القوانين التي حكمت الحركة نشأة وتطورا. إنه التأثير الطلابي الواسع على الحركة قيادة وفكرا. أي الأثر الملحوظ الذي تركه طلبة الإتجاه الإسلامي على الحركة قيادة وفكرا. التأثير الطلابي الواسع على الحركة في المستوى القيادي التنظيمي يعكس دون ريب النشأة الشابة لهذه الجماعة من جهة بمثل ما يعكس من جهة أخرى النشأة الثقافية المعاصرة لها.

لك أن تلاحظ أن طبيعة الإزدواج هي الطبيعة الغالبة على لحظة التأسيس الأولى. إزدواج سيظل يلاحق الجماعة عندما تنفتح على التجربة السودانية والإيرانية واليسارية وغيرها. لا أظنني في حاجة إلى تأكيد طبيعة ذلك الإزدواج على نحو يكون فيه الإزدواج ـ غير مقصود بالأصالة طبعا في لحظة التأسيس الأولى ولا هو ثمرة تخطيط مسبق ـ سببا مباشرا جدا من أسباب عوامل الثراء والخصوبة والقابلية للحوار والإنفتاح والإنخراط وخاصة في المعالجات الفكرية. أما المعالجات السياسية فستشهد ما يشبه عدم الوفاء الكامل سيما في السنوات الأولى لطبيعة ذلك الإزدواج.

الإزدواج مثلا في مستوى الجمع بين مالك بن نبي وبين المدرسة الإخوانية. ولكن لا تعجل عليّ فأمثلة ذلك الإزدواج الإيجابي ستترى علينا تباعا. هو إزدواج كذلك في مستوى آخر سرعان ما يلتقط الفرصة المواتية للإفصاح عن نفسه. هو إزدواج بين الإنتماء إلى جمعية قانونية يهيمن عليها نظام بورقيبة ـ جمعية المحافظة على القرآن الكريم التي إنتمى إليها الرهط المؤسس الأول بغرض نشر الدعوة ـ وبين عدم الإنتماء إلى أي مؤسسة نظامية.

ذلك هو القانون الأول الذي أريد تسطيره هنا في لحظة التأسيس الدعوي الأولى أي قانون الإحتفاظ بالإزدواج الإيجابي أو الإنتماء إلى سنة الإنفتاح. الإحتفاظ بالإزدواج يتطلب بالضرورة الإحتفاظ بالقدرة التلقائية على الإنفتاح. ولا أظنني في حاجة إلى التأكيد مرة أخرى بأن ذلك لم يكن منقبة مقصودة ولا هي نابعة عن تخطيط مسبق. لا أملك تفسيرا يقنعني أنا في البداية. أقول مرة : هي السجية التونسية ولكني لا أطمئن كثيرا إلى التمييز بين سجيات كثير من المجتمعات العربية إلى درجة نسبة مثل هذه السجية إلى التونسيين دون غيرهم. هذا الإتجاه الذي يتورط فيه أكثر الساسة اليوم ومثلهم الإعلاميون هو إتجاه لا ينال إعجابي حتى اليوم. أومن قطعا بالتمييزات والإختلافات والتعدديات والتنوعات بين الشعوب والقبائل والمجتمعات حتى تحت سقف المظلة العربية أو الإسلامية ذاتها ولكني أريد أن أكون صارما في نسبة هذه السجية أو تلك إلى شعب ما أو مجتمع ما دون أن أتعلم ذلك من دراسة إجتماعية مسؤولة. إرسال الأوصاف والنعوت منزوعة الأرسان هو كرم إعلامي وإغداق سياسي لا محل له في المعالجات الإجتماعية التي تحرص على جلب الإحترام.

ما هي المناخات التي ولدت في رحمها حركة النهضة

دعنا نقرر أولا ومنذ البداية أن الإنسان إبن بيئته أو لا يكون. تلك قاعدة إجتماعية لا تنسحب على الإنسان الفذ لتخطئ الجماعة. بل إن إنطباق السنن الإجتماعية على المجتمعات أشد. هما شرطان لحسن فقه الحركة فقها لا يخترمه الريب : شرط ذاتي يرصد تحولاتها الداخلية ومناسباتها. وشرط موضوعي يرصد التحولات الواقعية من حولها. أما دون ذلك فخبط عشواء. لا بد من رصد المناخات التي ولدت في رحمها حركة النهضة (الجماعة الإسلامية الأولى في مرحلتها التي نحن بصددها أي مرحلة البحث عن الذات 1969 – 1979). لا بد من رصد المناخات محليا وإقليميا وعربيا ودوليا. لا بد من التعليم لذلك حتى لو ضاقت هذه الورقات عن الإنبساط المطلوب. بل لا بد من ولوج منطقة أخرى هي أشد حساسية ولكنها ضرورية. هي منطقة الرجال الذين باؤوا بأعباء التأسيس الدعوي الأول. رجال مرحلة البحث عن الذات المضنية. بعض الناس يخلطون بين الخاص وبين العام خلطا شنيعا. وذلك على ضربين كلاهما خطل فظيع. بعضهم يفسرون التحولات التاريخية بفاعلية مؤجج من مؤججي تلك التحولات فحسب. وبعضهم يسيرون في الإتجاه المعاكس فيهملون تلك الفعاليات بالكلية. كلا الإتجاهين خاطئ في تقديري إذ التوازن الوسطي المعتدل يقتضي من الباحثين منهاجا جامعا بين المثلث الإستقرائي في كل أضلاعه المتكافلة على تفسير التاريخ : تحليل التحول في حد ذاته وتحليل المناخ الذي ولد فيه من جانب ثان وتحليل شخصية الفاعل (أو الفاعلين) من جانب ثالث. تلك هي المفاتيح الثلاثة التي تكفل حسن التفسير وتؤمن العملية الإستقرائية ومن بعد ذلك تخلص إلى حصائل صحيحة أو قريبة من الصحة. أستأذن القارئ لأوجل الحديث عن الفاعلين الأوّل إلى خاتمة هذه الورقات لئلا يرتبك مشهد المتابعة العامة لتطور الأحداث.

المناخات المحلية التونسية.

يمكن رصد تلك المناخات التونسية المحلية في مستويات أربعة هي :

المستوى الثقافي :

لا بد من تقديم هذا المستوى بحسبانه المفجر الأول والأكبر لنشوء صحوة إسلامية لم تعرفها البلاد منذ عقود طويلات كاسحات. تلك هي الصحوة الإسلامية الأولى التي سيكون وليدها الأول حركة النهضة. أبرز ما يمكن رصده في المستوى الثقافي هو تفرد بورقيبة بالحكم تفردا كاملا بما جعله ينفذ مشروعه التغريبي العالماني تنفيذا مريحا جدا بعدما أزاح من أمامه العقبات متمثلة في المعارضة الزيتونية (من الأمثلة على ذلك إضطرار الشيخ محمد صالح النيفر إلى إختيار المنفى بالجزائر بعدما جاهر بحضور بورقيبة في إجتماع لأعيان البلاد ـ وهو يتهيأ لتسلم المقاليد ـ بعدم رضاه على إستبعاد الإسلام من دفة القيادة والتوجيه وذلك بمناسبة إعلان بورقيبة أنه لا يراهن على جواد خاسر. الجواد الخاسر في عينه هو الإسلام) وإلغاء الدور الزيتوني بالكلية بعدما كان ذلك المعلم الأعظم أول معلم ديني إسلامي تعبدي علمي دعوي حضاري ثقافي جامع يؤمه طلبة العلم من كل صوب وحدب. وبمثل ذلك إلغاء قوانين الأحباس والأوقاف التي كانت تشد المجتمع الأهلي المدني أن يتهافت بنيانه في وجه صلف الدولة وجور الحكومة بمثل ما كانت تلك الأحباس محققة للحد الأدنى الضروري من التوازن المتعادل بين الدولة وبين المجتمع فهي التي تؤمن للناس حاجاتهم الإقتصادية وجزء كبيرا من العدالة الإجتماعية. وبمثل ذلك وقع إلغاء القضاء الشرعي وإجازة التبني بل عمد بورقيبة إلى نزع الخمار من على رؤوس التونسيات في وضح النهار في شوارع البلاد. لقد كان الهجوم البورقيبي ضد الهوية العربية الإسلامية للبلاد أمرا لا يمكن لمؤرخ منصف يحترم نفسه أن يلغ في الزور والبهتان فيتستر عليه أو يهيل عليه التراب. ذلك أن الرجل كان أصرح الصرحاء في ذلك إذ لم يقتصر على عمل تجد له تأويلا ـ بمثل ما قال بعضهم أن الرجل كان مجتهدا في الإسلام ـ بل صرح بأن القرآن متناقض وأن عصى موسى خرافة وغير ذلك مما هو معروف. وهل ينكر مؤرخ يحترم نفسه أن الرجل ذهب بعيدا جدا حتى دعا إلى إفطار شهر رمضان المعظم وبادر بإحتساء كوب من الماء أمام عدسات المصور وهو يرأس مجلسا لكتاب الدولة مما دعا عددا من العلماء إلى إستتابته؟ الرجل صاحب مشروع ثقافي حضاري جامع متكامل. لندعه يعبر عن مشروعه هو بنفسه إذ لا يفتأ يذكر أن فرنسا هي أمنا الحنون وأننا نعمل على اللحاق بركب الأمم المتقدمة ويسرد ذلك في سياق السخرية من العرب والإسلام والتقاليد والعادات و الأعراف وغير ذلك. من تلك العقبات التي عمل بورقيبة على إزاحتها لتتهيأ لمشروعه أسباب النجاح : اليوسفيين الذين شرد بهم من خلفهم تشريدا والسبب لم يكن سياسيا فحسب. السبب مزدوج فهو سياسي قاده إلى إغتيال صالح بن يوسف. وهو ثقافي كذلك بسبب أن بن يوسف يمثل الجناح العروبي في المقاومة ضد الإحتلال الفرنسي. ومن تلك العقبات على المستوى الإجتماعي دأبه على إعتماد خطة إجتماعية طويلة المدى وهي خطة تذرير المجتمع التونسي إذ ظل يعمل عملا متقنا منظما متكاملا على توهين العرى القبلية

والعائلية والأسرية والإجتماعية التحتية بصفة عامة وكلما وهنت عروة من تلك العرى تيسر له ربطها بالدولة التي سرعان ما بسطت نفوذها على البلاد. كان كثيرا ما يسخر من الإرتباطات القبلية في خطبه بحسبانها من رواسب الماضي المنحط. وكانت النتيجة التي لم يكن يتفطن إليها إلا قليل من قليل في بداية الأمر هي أن الحداثة من نافذتها الغربية تسللت إلى المجتمع التونسي يوما من بعد يوم حتى أصبحت الدولة هي الأم وهي الأب وهي الكفيل وهي الحامي . لنقل هي العاقلة بالتعبير القديم ولكنها عاقلة تبسط يدها على مواليها دون أن تكلف نفسها تحريرهم إذا ما وقعوا في شرك الدية. كاتب هذه الكلمات عايش تلك الفترة تلميذا يافعا منذ السنوات الأولى لخروج المحتل الفرنسي (إلا من بنزرت التي ظلت " محمية " فرنسية حتى عام 1962 أي حتى يطمئن المحتل على مستعمرته القديمة وليصنع مستقبلها على عينه). لا أذكر مادة واحدة من عشرات المواد التي كنا نتلقاها في التعليم الإبتدائي والتعليم الثانوي من سنوات 1960 حتى 1974 كانت تقدم لنا بلغتنا القومية أي اللغة العربية إلا مادة وحيدة هي : مادة اللغة العربية. مادة اللغة العربية ـ ومن بعد ذلك جاءت مادة التربية الدينية ـ هي المادة التي تتيح لنا السخرية من العرب والعروبة ومن التقاليد البالية والعادات الهرئة ولم يكن يقصد بالعادات والتقاليد يومها سوى الإسلام. ومن العام الموالي 1975 أصبحت موظفا حكوميا وفي شركات قومية شبه حكومية وظللت كذلك حتى إعتقالي يوم 24 مارس من عام 1987 فلا أذكر أني إستخدمت لغة إدارية غير اللغة الفرنسية. لا أظن أن المرء يحتاج لمثل هذه الشهادات حتى يخلص إلى أن المشروع البورقيبي لم يكن قوامه سوى إحلال الفرنكفونية لغة وثقافة محل العربية لغة وإنتماء فضلا عن منزع تغريبي إستلابي إلحاقي عالماني شديد التطرف. تلك هي خلفية المناخ الثقافي الذي عجل بميلاد الصحوة الإسلامية الأولى التي عجلت بدورها بميلاد الحركة الإسلامية. ومادام الحديث عن بورقيبة فلا بد من إدراج كلمات قصيرات أخرى لإنصاف الرجل. هي شهادة إنصاف أعرف أن شركائي فيها من أبناء الصحوة الإسلامية قليلون. الرجل ميزانه العام معقد جدا ومركب كثيرا بحيث لا يمكن نصبه في سطور ومن باب أولى وأحرى ألا يكون الحكم له أو عليه بجرة قلم. الميزان الثقافي للرجل لا شك فيه عندي أنه أسود قاتم شديد القتامة. أما الموازين الأخرى فهي معرضة لأن يتخللها هذا وذاك. ميزانه السياسي مزدوج فهو قهري إستبدادي دكتاتوري بإمتياز شديد وقد ظهر ذلك جليا في تعامله الوحشي مع معارضيه كلهم تقريبا بدء من الزيتونيين واليوسفيين وإنتهاء بالإسلاميين ومرورا بالشيوعيين والنقابيين إلا الليبراليين الذين خرجوا منه ـ ولم يخرجوا عليه في الحقيقة ـ بمناسبة إعلان نفسه رئيسا مدى الحياة في مؤتمر الحزب بصفاقس عام 1975 فإنهم لم يذوقوا ما ذاقه غيرهم بل سمح لهم بهامش كبير من الحريات الإعلامية والحقوقية (الرأي لصاحبها المرحوم حسيب بن عمار مثلا والرابطة التونسية للدفاع عن حقوق الإنسان لثلة منهم وغير ذلك). الوجه الآخر لميزانه السياسي مشرق ويتمثل في إرسائه دولة عصرية بأجهزة إدارية ومؤسسية كفيلة بإرساء دعائم الحرية والديمقراطية والعدالة الإجتماعية والوحدة الوطنية لو أنه سخر تلك الدواليب الحكومية لذلك المقصد الأسنى. الوعاء الإداري وعاء معاصر بأتم معاني كلمة المعاصرة والرجل حمل لواء التحديث من البوابة الفرنسية كما لم يحمله أحد ولكن المضمون نسخة فرنسية بالكامل. النظام الإداري التونسي ـ مثلا

ـ هو النظام الإداري الفرنسي ذاته ولعل من إطلع على ذلك في تلك الأيام بمناسبة خوضه للمناظرات العلمية والوظيفية مثلي يدرك ذلك جيدا. النظام التعليمي المتعلق بأكثر المواد الإقتصادية ـ مثلا ـ هو النظام الفرنسي ذاته حرفا بحرف وكلمة بكلمة ودرسا بدرس وهو نظام خبرته في سنوات التلمذة ومنه جنيت شهادتي العلمية. كان في المخيال الشعبي التونسي بصفة عامة أن خروج المحتل الفرنسي سيفسح المجال للعروبة لغة وثقافة وإنتماء وبمثل ذلك للتدين الإسلامي ولكن الذي حدث من بعد تولي بورقيبة زمام السلطة أمر مخالف لذلك بالتمام والكمال. ظني أن ذلك المناخ الثقافي الذي نجح في تجفيف منابع العروبة والتدين بدرجات كبيرة متقدمة هو المسؤول عن نشوء صحوة إسلامية سرعان ما تبلورت في صورة حركة إسلامية. ذلك قانون إجتماعي عمراني لا يمكن لا نكرانه ولا نكران آثاره. الأمر شبيه جدا بما حدث في تركيا من بعد رحيل مصطفى كمال بعقود.

ومما لا يفوت ذكره في هذا الصدد كذلك إمعانا من بورقيبة في تجفيف المنابع إصداره عام 1981 لمنشور شهير عرف بمنشور 108 يقضي فيه بحرمان المرأة التونسية من الإختمار سيما إذا كانت موظفة أو تلميذة أو طالبة. الحقيقة أن بورقيبة أصدر المنشور ـ وهو لا دستوري بكل المقاييس القانونية والعلمية شأنه شأن محكمة أمن الدولة ـ ولكنه لم يغال كثيرا في تنفيذه وخاصة خارج الإطار الإداري الحكومي إذ لم يكن الطلب على تنفيذه حتى في المدارس والمعاهد والكليات ـ حيث يكثر حمله ـ في تلك الأيام حثيثا في الجملة. ولكن لما تولى خلفه المخلوع بن علي ألفاه جاهزا لتنفيذه بغشامة ووقاحة وكبرياء وصلف وإنتقام واضح وثأر جلي.

بلغ الزهو بطرد التدين من البلاد من لدن دهاقنة اللائكية التونسية الفرنسية شديدة التطرف يومها أن الأستاذ الجامعي الهرماسي صرح عام 1969 في إحتفال بمناسبة إختتام السنة الدراسية الجامعية بأن الحداثة ـ التي لا تعني حتى اليوم شيئا في الأدبيات الغربية وأذيالها كتابة وإرتجالا سوى المشروع الغربي الإلحاقي الإستلابي النابذ للمشروع الإسلامي ـ ترسخت في تونس إلى درجة أن عودة التدين أمر منبوذ إلى الأبد. حضرت ذلك الإحتفال نخبة الدولة.

المستوى السياسي.

سبق بعض الحديث عن هذا المستوى بمناسبة الحديث في الفقرات الآنفة عن المستوى الثقافي وذلك بسبب إرتباطهما الوثيق. الأمر مفهوم جدا ولا يحتاج لعشر معشار ذرة من تحليل إذ أن العقبة السياسية هي العقبة الثانية ـ من بعد العقبة الثقافية ـ التي يمكن أن تحكم على المشروع البورقيبي الإلحاقي الإستلابي الجامع بالتعويق. العقبة السياسية كانت تتمثل في معارضة سياسية شاركت في معارك التحرير الوطني بجدارة وإستحقاق وبلاء من مثل المعارضة الزيتونية والمعارضة اليوسفية ولذلك لم يتردد بورقيبة على الحكم بالإعدام في أواسط سبعينيات القرن الميلادي المنصرم على الشيخ عبد الرحمان خليف بمناسبة إعتراضه عليه فيما يتعلق بفريضة الصيام ولم يتردد في التنكيل بخصومه في غار الملح وفي صباط الظلام وفي فرض الإقامات الجبرية على بعضهم وإضطرار بعضهم إلى المنافي ومصادرة جريدة دينية ربما لا يتعدى عدد

قرائها عدد أصابع اليدين في تلك الأيام بمناسبة رأي أصحابها في تحديد دخول الأشهر القمرية بنظام الأهلة بدل الحساب الفلكي والمقصود هنا هي مجلة المعرفة التي إتخذتها الجماعة الإسلامية الأولى (أي حركة النهضة) منبرا إعلاميا لها وكان ذلك في وقت مبكر جدا أي في بداية العقد السبعيني. بل بلغ الأمر إلى حد الحكم بالإعدام على الشيخ الرحموني بتهمة غريبة وعجيبة تضمنها قرار الإدانة القضائي وليست التهمة سوى تفسير المتهم للقرآن الكريم على غير ما فسره المجاهد الأكبر! كان ذلك عام 1961. وهو العام ذاته الذي شهد إغلاق جامع الزيتونة من بعدما ظل ممتلئا بأكياس الإسمنت تعلة من بورقيبة لترميمه. وبعد عام واحد (1962) يعود بورقيبة إلى ما يسميه دوما في خطبه الإذاعية " مؤامرة لزهر الشرايطي " الذي أعدمه ومن معه إلا من فر هاربا بجلده. التطرف البورقيبي لم يكن أمرا يرضاه التونسي ولكن بعد وقوعه ورحيل صاحبه إلى ربه سبحانه لا يرضى التونسي لنفسه أن يغمد قلمه أو أن يخرس لسانه أن ينطق بالحق شهادة تاريخية هي حق للأجيال القابلة. ميزان الرجل لا يختلف عليه ثقافيا ولا حتى سياسيا بمثل ما أنف ذكره. ميزانه الإجتماعي فيه كذلك مناقب محمودة وأحمدها قطعا تمحض مشروعه لإعلاء التعليم والثقافة والفكر وتمثل ذلك في أشياء كثيرة منها أن ميزانية وزارة التربية ظلت هي أكبر ميزانية على إمتداد الحكم البورقيبي إذ لم تتقدمها حتى ميزانية الرئاسة. لم يكن ذلك سوى عاكسا أمينا لحماسة الرجل لقضية التعليم وقد سمعته بأذني هاتين يخطب قائلا : أفضل أن يعارضني مثقفون على أن يعارضني جهلة. أجيالنا مدينة للرجل في الحقل التعليمي والفكري والثقافي بسطا للمدارس الإبتدائية في الأرياف والقرى لولا أن تلك المقررات كانت لا تسمح بمكان يليق بلغتنا الأم وديننا إذ إنحازت إلى اللغة الفرنسية إنحيازا مغاليا جدا. مجانية التعليم كانت كذلك منقبة من مناقب الرجل والحرفية التي يتمتع بها رجال التعليم في تلك الأيام. ومن مناقب الرجل كذلك في ميزانه الإجتماعي بسط المشافي البسيطة الصغيرة في الأرياف والقرى والعناية بالتلقيحات اللازمة حدبا وراء أسباب الوقاية. أما فيما يتصل بالمرأة فالموضوع يضيق عنه هذا الحقل ولكنه موضوع لا يند عن المشروع البورقيبي. إذا أحسنا الظن بالرجل إلى أبعد حد ممكن فلا نقول سوى أن الرجل أراد تحرير المرأة من العادات الجاهلية والتقاليد البالية التي تجعل منها رقيقا رخصيا ولكن مغالاته الشديدة في تنفيذ مشروعه جعلته يحرر المرأة من دينها ولغتها بالتمام والكمال. أصابت المرأة من سياسته التعليمية والتثقيفية أشياء كثيرة بمثل ما تقدم ذكره ومن ذلك حذق لغات أجنبية من مثل الفرنسية والإنجليزية ونيل الشهائد العليا ولكن أصابها من مشروعه الإلحاقي الإستلابي داء وبيل. في ميزانه الإجتماعي كذلك أنه لم يكن يكنز المال لنفسه وأهله وقرابته ولكنه لم يكن صارما مع عدد كبير جدا من حاشيته القريبة والبعيدة في مؤسسات الدولة ممن مارس سياسات النهب والسلب والإثراء غير المشروع على أوسع نطاق. في الميزان الإجتماعي العمراني للرجل كذلك أمر آخر لا بد فيه من كلمة. إنه الأمر الذي عرف به بورقيبة أي مسألة التنظيم العائلي الذي سخر له الرجل موازين مالية ودواوين ومنظمات وجمعيات ومؤسسات ثم باء بوأد النطفة التونسية وتجفيف منابع الرحم التونسي إذ ظل معدل الخصوبة في تونس هو الأدنى لا عربيا فحسب ولا إسلاميا فحسب بل هو من الأدنى دوليا إذ لا يزيد عن معدل الخصوبة في مجتمع أروبي غربي ـ مثل ألمانيا ـ لا تحكمه القيم لا من قريب ولا

من بعيد .. إلا بزهاء نصف العشر بل أدنى من ذلك. ربما بدأ ذلك البرنامج العمراني تنظيميا لإحداث التوازن المطلوب بين الأيدي العاملة وبين الثروات المتاحة ولكنه آل بالنتيجة إلى برنامج تحديدي تجفيفي وظل الرجل يحصد الجائزة المخصصة لأنجح برنامج في تحديد النسل في العالم بأسره عاما من بعد عام. الأمر الغريب المحير هو أن الرجل بمستواه الذهني المتقدم جدا وثقافته العالية جدا لا يجهل مطلقا أن الوزن العمراني في المجتمعات والشعوب مثله مثل بقية الأوزان الجغرافية والسياسية والحربية والإقتصادية والتاريخية والقيمية. كلها أوزان تتكافل لتصنع الحضارة والمدنية والنهضة والتقدم والإزدهار. الأغرب من ذلك والأشد منه تحييرا هو أن النظم القيمية التي يلهث وراءها الرجل لا تولي ذلك المعيار العمراني إلا ما يستحقه من تقديم.

ومعلوم أن بورقيبة إضطر عالما ذريا تونسيا من الوزن الثقيل ـ هو المرحوم البشير التركي ـ إلى الفرار إلى ليبيا حيث حاول السفاح القذافي إستثمار جهوده العلمية ولكنه سرعان ما ضاق به بمثل ما ضاق به بورقيبة. وظل الرجل مغمورا في قومه لا يجد من يفتح له الباب ليساهم من موقعه المتقدم جدا في نهضة أمة حكم عليها الغرب الأعور بالتخلف المؤبد. هل تعرفون لم نقم عليه بورقيبة؟ لسبب مضحك ولكنه ضحك كالبكاء. لأن الرجل أسس مجلة علمية ـ كنا نتلقفها في ذلك الزمن بمثل ما يتلقف الناس أخبار الواحدة ظهرا من هيئة الإذاعة البريطانية (ب ب س) ليعرفوا أخبار فلسطين وعبد الناصر ـ يتحدث فيها عن البعد الإسلامي للعلوم الكونية المعاصرة. العلم الذي سمي من بعد ذلك إعجازا علميا للقرآن الكريم. لم يتحمل بورقيبة عالما ذريا في وزن المرحوم البشير التركي لأنه " يزعم " أن القرآن الكريم ليس خصيما للعلم بل يحمل إشارات علمية كونية كثيرة. أنى للتخلف العلمي أن يبرح مضاجعنا. نعم الضجيع هو.

ولأن المشكاة واحدة فسيقترف الحماقة ذاتها خلفه المنقلب عليه المخلوع بن علي وذلك عندما يعامل عالما تونسيا آخر ـ في وزن المرحوم البشير التركي بل أكثر وأكبر ـ بالقهر ذاته. هو الدكتور المنصف بن سالم صاحب النظرية الرياضية المعروفة بنظرية بن سالم وأحد أكبر المتقدمين والنابغين في تخصصه العلمي في الأرض كلها. سيق الرجل إلى السجن فلما قضى عقوبته حكم عليه بما هو أشد. حكم عليه برقابة إدارية مغلظة جدا حتى إضطر إلى بيع الخضراوات فوق الأرصفة وهو مؤسس كلية العلوم بصفاقس. أنى للتخلف العلمي أن يبرح مضاجعنا. نعم الضجيع هو.

المستوى الإقتصادي.

ظل بورقيبة مترددا بين سياسات إقتصادية متخاصمة إذ ما إن أغراه وزيره الأعظم يومها أحمد بن صالح بالمشروع التعاضدي الإشتراكي عام 1969 حتى نزع يده من سياسة إقتصادية شبه رأسماليه موجهة من الدولة وهي سياسة لم تكن عادلة ولكنها في مقابل ذلك لم تكن جائرة جورا بائنا سوى ما تعلق منها بأمرين : الإثراء الفاحش غير المشروع الذي تمارسه الحاشية القريبة والبعيدة من جهة والتفاوت الجهوي الفاحش كذلك من جهة أخرى. هي سياسة كانت الطبقة الوسطى فيها هي أضخم طبقة فالمترفون ترفا فاحشا أقلية قليلة وبمثل ذلك المعدمون فقرا مدقعا.

ذلك التردد هو الذي جعله يضحي بالمشروع التعاضدي ويحاكم صاحبه خائنا أمام محكمة أمن الدولة بسرعة كبيرة ليولي وجهه شطر رأسمالية ـ شبه رأسمالية في الحقيقة ـ موجهة من الدولة كذلك ويقودها الإقتصادي المرحوم الهادي نويرة وهي تجربة إقتصادية من أكبر عللها أنها مرتبطة بالمنظمات الإقتصادية الدولية الجشعة إرتباطا كبيرا على نحو صادقت فيه البلاد رسميا بعد عام واحد من صعود نويرة على قانون ظلت المعارضة تطالب بإعدامه وهو المعروف بقانون أفريل 1972 الذي يعفي الواردات الخارجية من الأداءات الجبائية ويفتح السوق الداخلية في وجه منافسة دولية غير متكافئة مما جعل القطاع الخدماتي الثالث يتورم كثيرا على حساب القطاع الفلاحي والقطاع الثانوي وبذلك فرض على البلاد أن تكون معرضة لأدواء خبيثة من مثل التضخم والإنكماش والإرتهان للحالة الدولية وإكراهاتها بصورة مشينة والتداين المشط والمرهون بمقايضات معروفة. وما إن جاءت المحاولة الإنقلابية من لدن القذافي ضد مدينة قفصة من عام 1980 حتى وقعت التضحية بالرجل الأول في الحكومة أي المرحوم نويرة ليعتلي المشهد المرحوم محمد مزالي ولتتجه البوصلة الإقتصادية بنسبة كبيرة ملحوظة إلى الخليج العربي والعمق العربي والإسلامي بصفة عامة في حين أنها كانت معرضة عن ذلك الإتجاه إعراضا تاما أو شبه تام. ظل ذلك التردد هو سيد الموقف ولولا أنه لم يكن موجها بنسبة كبيرة جدا من الدولة لتورمت دوائر الفقر والخصاصة بأكثر مما كانت عليه. كان الإعتماد كذلك على السوق الليبية والسوق الخارجية في اليد العاملة المهاجرة إعتمادا كبيرا وبذلك منيت البلاد بما يشبه الصاعقة عندما طرد القذافي عام 1985 كل العملة التونسيين ويعدون بمئات الآلاف وكان قد طرد منهم قبل ذلك أي عام 1978 عددا كبيرا جدا كذلك إمعانا في إغراق البلاد في النكسة الإقتصادية تزامنا مع أزمة إتحاد الشغل والدولة بما عرف بالخميس الأسود 26 جانفي من العام نفسه.

المستوى القومي.

لم يكن بورقيبة يكن للعروبة ـ لا لغة ولا إنتماء ولا حتى قومية ـ شيئا يذكر. إذا تجنبنا مصطلحات العداء فإنه من التجني أن تنسب إلى الرجل غيرة على مثل تلك القيم المركوزة في الذاكرة التونسية. بدأ ذلك بمشروعه الإلحاقي آنف الذكر ثم إحتدم الأمر ليكون منافسة شرسة حادة بينه وبين جمال عبد الناصر. هذا رجل الغرب ـ أو المغرب ـ الذي خطب بأريحا الفلسطينية عام 1965 خطاب البراغماتية السياسية العربية الموصوفة بالإعتدال داعيا إلى التقسيم حلا للقضية. صحيح أن الحالة الدولية يومها لم تكن بعيدة عن ذلك المطلب العربي التنازلي في ظل التنافس القطبي الأمريكي الشيوعي ووجود منظمة عدم الإنحياز التي ينتمي إليها كل العرب تقريبا. ولكن تلك الأيام لم تشهد كذلك ميلاد المقاومة المسلحة رغم نشوء منظمة فتح (حركة التحرير الفلسطينية ح ت ف التي وقع التطير من إسمها الذي يحتف بالمحتل فوقع إستبداله بما هو ألين وأهون أي ف ت ح) على يد المرحومين الشقيري وياسر عرفات في الأيام الفاصلة بين عامي 1964 و 1965. لم يكن خطاب أريحا المتزامن مع نشوء أول حلقة من حلقات المقاومة بريئا بكل مقاييس التحليل السياسي الموضوعي المنصف. فكرة الدولة القطرية الجزئية التابعة يومها كان لا يمكن أن يند عنها زعيم عربي واحد حتى عبد الناصر نفسه. لم يكن بورقيبة

متحمسا للوحدة العربية ولا الإسلامية من باب أولى وأحرى. ألم يكن مؤتمر الجزائر الذي أقر إعتماد منظمة التحرير الفلسطينية ناطقا رسميا وحيدا بإسم المقاومة وبإسم فلسطين نصرا مبينا في الدبلوماسية العربية؟ ظاهر الخيار لا غبار عليه ولكن دلالته السياسية يومها تعني رفع الضوء الأحمر في وجه الدول التي تتحمس لقضية المقاومة والتحرير أي ما سيسمى من بعد ذلك بعقود حلف الممانعة أو المقاومة أو دول الطوق. قرار الجزائر هو ثلمة أخرى في جلد الثور العربي الطريح الذي أثخنته جراحات التجزئة والتشظي. الدلالة السياسية هي تعميق التجزئة العربية والإنشطار العربي لتكون فلسطين منزوعة الظهر العربي في وجه الآلة الإسرائيلية والصهيونية والأمريكية والصليبية. أمر آخر جعل بورقيبة يعمق بغضه للوحدة العربية وهو إبتلاؤه الجغرافي بالقذافي الذي فرض عليه وحدة إندماجية في جزيرة جربه عام 1974 إذ ظن الرجل أن العقيد شاب عابث لاه أو ربما سال لعابه إلى بترول ليبيا لعل بلاده ـ تونس ـ تظفر بإستثمارات تغنيها. فما إن تبين له أن الأمر مخاطرة إستراتيجية سيما مع القذافي ـ بله كون الخطوة لا تصب لفائدة مشروعه الحضاري ـ تحامل على نفسه وهو مريض ليأتي إلى قاعة البالماريوم ويوبخ الشاب الفائر ويسخر منه وهو إلى جانبه على المنصة أمام الملإ. ثم إنتهت مسرحية الوحدة إلى الأبد وبدأ الشاب العسكري في مباشرة الحل الآخر مع بورقيبة أي حل الطرد للعمالة التونسية وحل الإنقلاب العكسري في قفصة. لم تتردد الحركة الإسلامية يومها وهي في مهدها الأول ـ مهد البحث عن الذات ـ في إعلان موقف إيجابي من الوحدة الإندماجية مع ليبيا وصدر ذلك كالعادة في مجلة المعرفة المشاكسة ضد بورقيبة طورا في قضية إعتماد الرؤية بدل الحساب وطورا في تأييد الوحدة العربية. ما يهمنا هنا أكثر من غيره هو صعود نجم الناصرية الداعية إلى المقاومة والوحدة العربية في مقابل البورقيبية التي لم تكن تجيشها تلك الدعوات كثيرا ولكنها لا تغادر في الجملة مساحات البراغمانية العربية وبذلك كانت هزيمة 1967 كئيبة حزينة على نحو حقنت كل عربي تقريبا بحقنة غائرة إسمها : الثأر من المحتل وممن يعزره أو يصمت على جرائمه فريضة إن شئت دينية فهي دينية وإن شئت وطنية فهي وطنية والأمران في المخيال العربي ليسا خصمين. أما عندما فر الثور المصري ـ على حد تعبير الشاعر العربي الشهير أحمد مطر ـ عام 1978 إلى إسطبل داوود ووقع تجميد مصر من جامعة الدول العربية فإن إختيار تونس لتكون حاضنا لتلك الجامعة مبنى وأمانة عامة لم يكن تقديرا للدور البورقيبي من قضايا العروبة والوحدة ولكن فضا للنزاع العربي ولا يخلو من توجيه إسرائيلي لتلتحق المقاومة الفلسطينية من بعد ذلك بسنوات قليلات (ممثلة في عرفات ومن معه) بتونس مقر الجامعة العربية في إثر الهجوم العسكري الإسرائيلي الشاروني الإستئصالي على جنوب لبنان عام 1982. أو ما عرف بمجزرة صبرا وشاتيلا.

ذلك هو مجمل المناخات العامة التي ولدت في رحمها الحركة الإسلامية الأولى أي حركة النهضة ولا يستعجب أحد أن المناخات كلها ـ ثقافيا وقوميا وإقتصاديا وإجتماعيا وسياسيا ـ يكون اللاعب الأول فيها هو رئيس الدولة وذلك بسبب أن النظام التونسي منذ خروج المحتل حتى ثورة 14 يناير 2011 هو نظام فردي مغلظ. نظام تكون فيه الدولة هي اللاعب ولا عبرة بالمجتمع وفعالياته إلا عندما تتكثف الضغوط الحقوقية والإجتماعية بما يجعل الدولة تضطر إلى التنازل

إلتواء من مثل ما وقع في ثورة الخبز عام 1984 عندما إضطر بورقيبة إلى العودة بسعر الخبز إلى قيمته الأولى. السياسة يصنعها الفرد ولا مكان للمجتمع وفعالياته. هي مناخات بالجملة لا يمكن إلا أن تثير في المجتمع شيئا. هي مناخات تهيئ الأسباب لميلاد معارضة بأي صورة من صور المعارضة. بل هي مناخات تهيء لميلاد معارضة إسلامية سيما بما صنعته تلك المناخات ثقافيا وقوميا بصفة خاصة. هي مناخات كانت مهيئة لذلك من أول يوم ولذلك ولدت الحركة الزيتونية (صوت الطالب الزيتوني مثلا الذي سبق ميلاده تسلم بورقيبة لمقاليد الحكم) والحركة اليوسفية والحركة الشيوعية (سيما مجموعة آفاق التي حوكمت في تلك الأيام) ومعلوم أن بورقيبة لا يحبذ المد الشيوعي لا لشيء إلا لفرط إنصهاره العجيب في المثال الرأسمالي الفرنسي ولذلك كانت التجربة اللائكية البورقيبية تجربة قاسية قسوة اللائكية الفرنسية مقارنة بالعالمانيات الأوربية الأخرى في ألمانيا وأنجلترا وأمريكا.

المناخات الإقليمية والعربية والدولية.

كثير من تلك المناخات وقعت الإشارة إليها في الفقرات الآنفة وذلك بسبب تشابك الأوضاع وإتصال المناخات في عالم نزاع إلى التكتل رغبة من القوي في إفتراس الضعيف ورغبة من الضعيف في الإحتماء بالقوي. أبرز شيء هو إحتلال فلسطين مرتين : مرة عام 1948 تنفيذا لمؤتمر بازل السويسرية عام 1897 وإستحقاقا أوليا من إستحقاقات إنتهاء الحرب العالمية الثانية بإعلان إنتصار الحلفاء ضد المحور. ومرة عام 1967 وهي الهزيمة التي ترددت أصداؤها في جنبات العالمين العربي والإسلامي بأسرهما. حاول خلف عبد الناصر (الرئيس المؤمن محمد أنور السادات) أن يثأر من الهزيمة النكراء الشنعاء أي هزيمة 1967 التي أنهت الناصرية ثم أنهت جمال عبد الناصر نفسه (إذ مات الرجل عام 1970 ومازال الغموض يلف موته) فجهز حرب الأيام الستة من رمضان 1973 ميلادية وكان بطل العبور فيها (عبور سيناء) الفريق سعد الدين الشاذلي ـ رحمه الله ـ الذي عوقب بالتهميش والإهمال والمحاصرة جزاء وفاقا على عبوره سيناء لأول مرة إنتقاما من نكبة الأمة في 1967. ومعلوم أنه قبل رحيل عبد الناصر بعام واحد إنقلب العقيد القذافي على الحكم السنوسي في ليبيا في الفاتح من سبتمبر أي عام 1969 ليكون عنصر توتر شديد جدا في المنطقة الإقليمية والعربية والإسلامية والدولية ثم ليهدي ترسانته النووية إلى الأمريكان على طبق من ورد وفضة لفرط ما بث في روعه من بعد إعدام صدام حسين بأيدي عراقية شيعية وقرار أمريكي خالص.

ولكن لم يكن الثأر المزعوم إنجازا أطفأ الحرقة العربية والفاجعة الإسلامية التي خلفتها هزيمة 1967. ثم إنتهى الحال بالرئيس المؤمن عام 1973 إلى ثور فار من حظيرة البقر إلى إسطبل دوودا عام 1978. عامل آخر سيكون له أثره الكبير جدا على الصحوة الإسلامية وهو الوجود الإخواني في مصر. عوامل عبور ذلك الوجود للحدود العربية والإسلامية وإستلامه تأشيرة التأثير الواسع كثيرة منها : شخصية المؤسس بحسبانه رجل التجديد الديني المعاصر وليس مجرد

مؤسس لجماعة دعوية أو لحزب سياسي.أي حسن البنا مؤسس الجماعة عام 1928. ومنها كذلك مساهمته في حرب فلسطين عام 1948 بكتائب عسكرية. ومنها كذلك قتل عبد الناصر لأحد أكبر منظري ذلك الوجود أي سيد قطب الذي إنتشر تأثيره وإنداح شرقا وغربا ولم يزل ينداح حتى يومنا هذا وذلك في 28 أوت من عام 1966 في مشهد كئيب لم تشفع فيه وساطات عربية ذات وزن كبير. ومنها كذلك جدة التجربة الإخوانية بسبب أنها أول تجربة إحيائية جامعة ومنظمة وسلمية وتعتمد الفكر والثقافة والوسائل غير التقليدية في الإصلاح والتغيير. ومن ذلك كذلك تولي السادات مقاليد الحكم في مصر وعفوه عن الإخوان المسجونين وإشاعة حال من الحرية الإعلامية الدينية لم تقتصر على الحالة المصرية بل تسللت تلك المنشورات الدعوية غير التقليدية إلى شرق العرب وغربهم فكانت تصنع الوعي وتنشر الثقافة وتبشر بعهد إسلامي جديد وبإفلاس المنهاجين التقليديين أي الشيوعية والرأسمالية وكان الخطيب المصقع الكشك يشفع ذلك بلسان قح إستسلمت له البلاغة والفصاحة إستسلاما وصوت جهوري بما جعل من الخطاب الإسلامي الجديد مشهدا حيا من مفردات المشهد العام ومكونات الثقافة العامة وإن كان محصورا يومها في النخبة فحسب. ثم يختم المشهد السبعيني (1969 ـ 1979) بما عدّ أول أكبر حدث في نصف القرن الميلادي المنصرم أي الثورة الإيرانية (فيفري 1979). ولن يكون له ندّ يوازيه إلا بإنتهاء عشرية قابلة لنكون مع موعد مع حدث آخر لا يقل خطورة وهو إنهيار الإتحاد السوفييتي. لنؤجل الحديث عن تأثير الثورة الإيرانية إلى العشرية القابلة أي مرحلة الحزب السياسي في الحركة أو لحظة التأسيس السياسي الأول. لا بل لنقل : مرحلة الدفاع عن الحرية.

إلى هنا نكون قد إستوفينا الحديث عن لحظة التأسيس الدعوي الأول وعن مرحلته التي إخترنا لها عنوان : البحث عن الذات. بحث ظل مترنحا مترددا من 1969 حتى 1973 ثم إستقر على وضع داخلي تنظيمي فكري سلوكي محدد وقع شرحه آنفا وذلك حتى 1979. الحديث عن تلك اللحظة وعن تلك المرحلة لم يكن عاريا منزوع قيمة الزمان والمكان بل كان ذلك ضمن إطاره التاريخي ومناخه الثقافي فكريا وسياسيا وقوميا وإجتماعيا وكذلك محليا وإقليميا وعربيا ودوليا. نظن أن ذلك أدعى إلى حسن الفهم بما يؤهل إلى حسن الإستنباط.

التأسيس السياسي الثاني
أو مرحلة الحزب السياسي الجامع

هي لحظة تأسيس ثانية في تاريخ الحركة. إمتدت عقدا كاملا تقريبا أي من 1979 حتى 1989.

أول لبنة شهدتها هذه المرحلة هي عقد أول مؤتمر للجماعة وذلك بضاحية منوبة عام 1979. هو المؤتمر التأسيسي الأول الذي وضع الجماعة على طريق محددة المعالم واضحة الرسالة وذات وسائل بينة. حدد المؤتمر التأسيسي الأول للجماعة ـ الذي أقر إسم الجماعة الإسلامية ـ قانونا أساسيا يقول في أول فصل منه أن رسالة الجماعة هي الدعوة إلى الإسلام. ويشرح ذلك ضمن أهداف معروفة تعكف حول شرح الإسلام من حيث أنه منهاج حياة شامل كما يبين الأساليب المتخذة لذلك من مثل نشر الفكر الإسلامي وتشجيع التأليف وغير ذلك. ويتطرق إلى الوعاء التنظيمي الذي يكفل تحويل تلك الأهداف بوسائلها إلى واقع معيش وهو هرم تنظيمي يعتمد المؤتمر أعلى سلطة في الجماعة وينتخب مؤسساتها القيادية الدستورية وخاصة رئيس الحركة وكان في تلك الأيام يسمى أمير الجماعة ومجلس الشورى الذي يعد أعلى سلطة في الجماعة بين مؤتمرين وهو الذي يزكي المكتب التنفيذي الذي يرعى العمل الإسلامي الدعوي العام والتنظيمي كذلك في المناطق والجهات. مبعث تسمية هذه المرحلة ـ مرحلة التأسيس السياسي أو مرحلة الحزب السياسي الإسلامي الجامع ـ هو أن إستواء الجماعة بدء من عام 1979 على خارطة طريق واضحة المعالم محددة الأهداف والوسائل وخاضعة لقانون أساسي ـ لا يعتمد السرية سبيلا إلى تحقيق أهدافه إذ لم يرد ذلك لا نصا ولا روحا ولكن ذلك من باب الثقافة العملية المكتسبة بسبب التحول الذي طرأ على الجماعة من بعد إجتماع سوسة المشار إليه آنفا ـ .. مبعث التسمية إذن هو أن الجماعة بعد مؤتمرها التأسيسي الأول لا مناص لها من الإصطدام بالدولة القائمة منذ البداية على يد بورقيبة على إستبعاد الإسلام وتهميش دوره. أنى لإرادتين بالتعايش السلمي : رئيس الدولة الذي عين نفسه رئيسا مدى الحياة في مؤتمر الحزب بصفاقس عام 1975 والذي لا مجال عنده لدور يؤديه الإسلام في الحياة العامة من جهة وجماعة إسلامية دعوية منظمة تعمل على نشر الفكرة الإسلامية الجامعة لإعادة الإعتبار للإسلام ورموزه ومؤسساته وتوجيهه للحياة العامة بما فيها الحياة السياسية من جهة أخرى. الصدام إذن حتمي طال الزمان أم قصر. بدأ التنظيم الخلوي التربوي في تلك المدة يتطرق إلى بث الوعي السياسي إذ يتعرض الشباب المنضوي تحت لواء ذلك التنظيم الخلوي التربوي إلى تثقيف سياسي عن الأحزاب التونسية والحركة الوطنية وغير ذلك. ينبغي أن نذكر دوما أن إعداد الشخصية الإسلامية المتوازنة والمعتدلة في تكوينها الروحي والفكري والبدني والسياسي والحركي هو المقصد الأسنى من ذلك التنظيم الخلوي. غابت بعض مظاهر التكوين الحركي مدة لتميل الكفة نسبيا إلى مواد تمكن من

مقارعة الفكر المادي الوافد لأنه عائق حقيقي سيما عند الشباب ولكن بقدر التقدم على درب الزمن يضمر ذاك ليحتل التكوين الحركي العام مكانه اللائق به.

كان ذلك مبعثا بطريق القوة على حد تعبير الفلاسفة. ولكن جد يوم 5 ديسمبر 1980 ما هو كفيل بأن يجعل ذلك المبعث بطريق الفعل. بعد عام ونيف من المؤتمر التأسيسي الأول إنكشف تنظيم الحركة لأول مرة بالكامل تقريبا أي في محطاته الكبرى الكفيلة بكشف ما وراءها تحت عصا البوليس. كان الإنكشاف خطأ أمنيا فادحا من بعض أعضاء المكتب التنفيذي إذ تحصلت وزارة الداخلية على حقيبة التنظيم السري كاملة فكان ذلك لها هدية بالمجان ولكن إكتشف بورقيبة لأول مرة ما هاله وما دعاه لأن يصرح في خطاب له من بعد ذلك بزهاء أربعة شهور فحسب بأنه لا مانع من وجود أحزاب سياسية ما إحترمت القانون ونبذت العنف. لم يكن مراد بورقيبة معروفا على وجه الدقة حتى يوم الناس هذا. هل كان صادقا في توجهه ذاك؟ هل تفاعل إيجابيا مع ذلك الإنكشاف؟ أم أنه أراد بدهائه ومكره المعهودين أن يستدرج الجماعة إلى العمل الحزبي العلني ليراقب أمرها من جهة وليجهز عليها متى شاء من جهة أخرى؟

لم يكن زعماء الحركة من قبل ذلك أناسا مغمورين تحت سقف ذلك التنظيم السري بل كانوا يظهرون في المساجد ودور الثقافة وفي الصحافة المكتوبة. كان يتم ذلك في مساجد العاصمة من مثل مسجد الزراعية ومسجد سبحان الله ومسجد سيدي محرز. كانت تلك المساجد تشهد من حين لآخر ضربا من الندوات الفكرية حول الإقتصاد الإسلامي مثلا.(ندوة شهيرة أدارها رئيس الحركة حول الملكية الزراعية في نهاية العقد السبعيني). كان الإقبال طلابيا وتلمذيا بالدرجة الأولى والتنافس فيه على أشده بين الرجال وبين النساء.

ليكن إذن يوم 5 ديسمبر 1980 يوما فاصلا في تاريخ الحركة بين مرحلتين بإمتياز شديد جدا. ليكن ذلك اليوم يوما فارقا بين لحظتي تأسيس. لك أن تقول بحق وإطمئنان بأن ذلك التاريخ نقل الجماعة إلى أن تكون حركة بدل جماعة بمثل ما نقلها من طور الدعوة ـ بمثل ما تجلى آنفا ـ إلى طور الحزب السياسي الإسلامي الجامع.

ليكن إذن ذلك الحادث المؤلم بالمعنى التنظيمي الداخلي مناسبة للولوج إلى مرحلة جديدة بإمتياز شديد هي مرحلة : الدفاع عن الحريات في تونس ولأول مرة منذ الإستقلال.

كان الإنكشاف إذن ثم تلاه خطاب بورقيبة التاريخي. وكان ذلك كافيا لإنجاز أول مؤتمر إستثنائي في الحركة (ماي 1981) وعلى جدول أعمال المؤتمر سؤال وحيد : كيف نتفاعل مع الحدثين؟ طرح السؤال قبل ذلك بأسابيع طويلة على صف الحركة ضمن خيارين متضادين : خيار جهز وثيقته على أساس أن خطاب بورقيبة لن يغير طبيعة النظام الدموية وليس لنا سوى أن نواصل عملنا مع إلتزام إجراءات أمنية وإدارية وتنظيمية لإمتصاص ضربة أمنية قادمة وتحصين الجماعة. وخيار مضاد جهز وثيقته على أساس أن المناسبتين فرصة مواتية للعلنية المفروضة والإنتظام تحت سقف حزب سياسي وتبليغ رسالتنا إلى الشعب مع نبذ العنف. صف الحركة يومها يتكون من ثلاثة مستويات تنظيمية ولكن لا يعد عضوا في الحركة سوى أصحاب المستوى

الثالث. عرض المشروعان مكتوبين على صف الحركة بمستوياته الثلاثة وكانت النتيجة لفائدة خيار العلنية بنسبة كبيرة ومريحة جدا تجاوزت الثلثين أو ناهزتهما وهو الأمر الذي صادق عليه المؤتمر الإستثنائي الأول الذي جهز مادته الفكرية والسياسية والقانونية للإعلان عن أول حزب سياسي إسلامي في تونس منذ قرون طويلة بل في العالم العربي والإسلامي إذ لم يكن مفهوما أبدا أن يتقدم حزب إسلامي سياسي بطلب تأشيرة قانونية. كان ذلك يوم 6 جوان 1981. كان يوما مهيبا هز الدنيا هزا حقيقيا ولا أظنني أبالغ في ذلك أدنى مبالغة إذ صدمت المبادرة بورقيبة ومن حوله. لا أجد الكلمات الكفيلة بالتعبير عن تلك الصدمة وعن ذلك الحدث. لو إستقبل المرء من حياته ما إستدبر لظن بالتأكيد أن الجماعة التي تتحدى بورقيبة في عقر داره بإعلان حزب سياسي إسلامي يعمل على خوض الإنتخابات وينافس على السلطة.. هي جماعة تجهل التوازنات المحلية والإقليمية والعربية والدولية. الزمان يومها مازال مبكرا جدا على عمل مثل هذا. الرجل الذي يقبض بيد من حديد على الدولة وأجهزتها ويوجه المجتمع بسياساته في مختلف الحقول حيثما يريد هو .. ذلك الرجل لم يكن يدور في خلده يوما أن يتحدث معتوه عن دور سياسي للإسلام فإذا به يفاجأ بتنظيم سري يدعو إلى الإسلام فلما إنكشف أمره قرر العلنية ونظم ندوة صحفية ليقدم نفسه على أنه حزب سياسي إسلامي في دولة بورقيبة حيث مضت العالمانية بوجهها اللائكي الفرنسي المتطرف تدك شعائر الدين وشرائعه دكا. المعلن عنهم في الهيئة التأسيسية يجمعون بين أمرين لا يخشى بورقيبة سواهما : الشباب والحصول على درجات تعليم متقدمة ومعرفة عالية ومتخرجين من الكليات التي شيدها بورقيبة لخدمة مشروعه. الأنكى من ذلك هو أن أغلب أولئك متخرجون من الكليات العلمية. مفارقات عجيبة حصلت في ذلك اليوم الذي لا أظن أنه مر على الرجل يوم أنحس منه. من وراء البحار دول وحكومات ومنظمات ترقب الوضع. شيء واحد ورد في البيان التأسيسي يمكن له أن يخفف من وطأة الصدمة لدى الأروبيين وهو أن الحركة لا تنطق بإسم الإسلام ولا تحتكره ولا تتعدى كونها قراءة إسلامية تجمع بين الأصل وبين المعاصرة. أي أن مشروع الحركة ليس تيوقراطيا كنسيا. ناكية النواكي التي مازالت إلى يوم الناس هذا تقض المضاجع حتى عند الذين يريدون حقا فهم الإسلام السياسي هي أنى للدين أن يجتمع بالسياسة. كيف يكون الوعي بتلك الإشكالية النهضوية الحضارية القديمة المتجددة في مثل تلك الأيام؟

جهز المؤتمر الإستثنائي نفسه تجهيزا متكاملا فجاءت الندوة الصحفية بما يشبه بديلا سياسيا وإقتصاديا وإجتماعيا وقوميا وقيميا كاملا. لم يترك الصحافيون أمرا يمكن أن يحدث المفاجأة أو يشيد الشرخ المطلوب في هذا النشاز الماثل أمامهم إلا وطرحوه وكانت الأجوبة واضحة جلية عامة حيث يجب العموم ومفصلة حيث يجب التفصيل. لم يصبر بورقيبة على ذلك الوضع الصادم سوى شهور قليلات ثم إندفع في شهر رمضان من العام ذاته 1981 (جويلية) يشن حملة إعتقالات شملت زهاء مائة مناضل من مناضلي الحركة. جاءت الإعتقالات بحسب ما تسنى لوزارة الداخلية من أعضاء التنظيم في حقيبة التنظيم التائهة وليس بحسب المعلن عنهم في الندوة الصحفية فحسب. خضع المعتقلون لوجبات التعذيب اللازمة وخاصة الطلبة منهم على خلفية إحتجاز عميد كلية العلوم قبل ذلك (20 فيفري 1981) وجاءت الأحكام القضائية ليكون أقصاها

عشر سنوات سجنا نافذا. قضى المعتقلون زهاء 3 سنوات في السجن ثم أفرج عنهم لأسباب كثيرة منها وساطة قام بها بعض الوطنيين ونشرت رسالة شهيرة في الأمر بإمضاء محام معروف هو الفتحي عبيد. ومنها إندلاع ثورة الخبز في فجر العام ذاته الذي وقع فيه الإفراج عنهم ومنها كذلك نشوء حراك حزبي وإعلامي نشيط لأول مرة في البلاد منذ إستيلاء بورقيبة على السلطة. إذ ما إن زج بالإسلاميين في السجون حتى وقع الترخيص لعدد من الأحزاب السياسية منها حركة الديمقراطيين الإشتراكيين بزعامة أحمد المستيري (أحد الوزراء السياديين الأوّل لبورقيبة وأحد الليبراليين الذين خرجوا من حزبه في مؤتمر صفاقس عام 1975 إحتجاجا على جعل نفسه رئيسا مدى الحياة) والحزب الشيوعي التونسي بزعامة محمد حرمل وذلك بعد إقصاء خضع له الحزب لمدة عقود طويلة وحزب الوحدة الشعبية بزعامة أحمد بن صالح وأحزاب أخرى. ونظمت إنتخابات تشريعية في الإبان دعمتها الحركة وفازت بها حركة المستيري بنسبة كبيرة جدا وما كان ينبغي لبورقيبة إلا تزويرها. تلك فترة خصيبة جدا من الحياة الإعلامية والسياسية في تونس أي من عام 1982 حتى 1987 تقريبا.

بادرت الحركة إلى جبر أضرارها التنظيمة ومؤسساتها الداخلية بسرعة قياسية إذ لم تتواصل الإعتقالات من بعد سجن قيادة الحركة في صائفة 1981 ولا أشيع في البلاد مناخ من الخوف أو الهلع بل عادت الحياة إلى طبيعتها. يتحرك الناشطون في الحركة بشيء من الحذر ولكن بأريحية كبيرة. إختارت الحركة لتثبيت هويتها ومراجعة مسارها وبناء مستقبلها مشروعا فكريا نظريا منهاجيا أسمته مشروع الأولويات يشتمل على ثلاثة أجزاء كبرى : أولها تقويم وضع الحركة وثانيها دراسة الواقع المحيط من قريب ومن بعيد لحسن فهمه وحسن التفاعل معه وثالثها إنجاز البديل الملائم إنسجاما مع خلاصات التقويم ومع حصائل الواقع المدروس. بث ذلك المشروع في الناس داخل الحركة مناخا جديدا تعيشه الحركة لأول مرة. هو مناخ التفكير الهادئ والدراسة المعمقة والبحث النظري والإهتمام بالواقع. مناخ صنع الحركة صنعا حقيقيا ليجعلها لأول مرة في حياتها الزاخرة حركة ثقافية فكرية تتعامل مع البحوث والدراسات والعلوم والمعارف والإحصائيات والحوارات والكتاب والقلم والتدوينات. مناخ كان كفيلا بصرف أبناء الحركة عن مجرد التفكير في ردود فعل عاصفة هوجاء هوشاء طائشة إنتقاما من دولة بورقيبة التي غيبت قيادتهم في السجن. أنجزت في تلك الأيام عشرات البحوث والدراسات في شتى التخصصات العلمية والواقعية وكان المناخ الأمنى مواتيا لتوزيعها في المناطق والجهات على كل المنتظمين.

ثم إنتظمت الحياة الداخلية في الحركة كأحسن ما يكون الإنتظام إذ أقبل الشباب على الحركة تعاطفا معها في إثر الندوة الصحفية وإعلان مواقفها وفي إثر الإعتقالات التي تلت ذلك. واصلت الحركة إنتداب الشباب إلى صفوفها في مناخات أمنية مريحة مع ملازمة الحذر بطبيعة الحال. وبمثل ذلك وأجود منه وجدت الحركة لها في الجامعة والمعاهد الثانوية مواطئ قدم كبيرة. وفي 9 جانفي من عام 1983 جدّ إنكشاف أمني آخر وهو المعبر عنه يومها بإنكشاف مكتب حمادي (أي حمادي الجبالي الذي كان يدير الحركة سرا) وذلك من خلال مداهمة البوليس للقاء موسع ضم القيادات الطلابية وكانت الأحكام مخففة كثيرا مقارنة مع ما سبقها إذ لم تتجاوز بضعة

شهور. وفي الحين أعلن عن المكتب التنفيذي للحركة برئاسة الأمين العام نفسه أي حمادي الجبالي ولكنه ظل يلازم السرية. وتوالت الإعلانات من بعد ذلك على المكاتب الإعلامية للحركة و المقصد الأسنى من ذلك أمران : الإمعان في تكريس التمشي العلني إلى النهاية من جهة ومن جهة أخرى توفير مؤسسات علنية يتعامل معها الإعلام الذي كان يتطرق إلى شؤون الحركة في تلك الأيام بشكل يومي. أجل. دون أي مبالغة. وبعد عام واحد من الإنكشاف الأمني الثاني وقعت ثورة الخبز وبعدها بزهاء نصف عام فحسب أفرج عن المساجين وكانت مناسبة لأن تعقد الحركة في كل مناطقها لقاءات مع الشيخ راشد رئيس الحركة المفرج عنه والذي كان يتواصل معهم من خلال بعض الكتب التي كان يؤلفها في السجن من مثل : القضية الفلسطينية بين مفترق طريقين أو من مثل حق الإختلاف وواجب وحدة الصف وكان يصدرها بإسم إبنه الأكبر : معاذ (الصابر) حتى تجد طريقها إلى النشر. وبعد الإفراج تقابل الوزير الأول المرحوم محمد مزالي مع بعض قيادات الحركة من مثل الغنوشي والجبالي ومورو ليعرض عليهم بإسم بورقيبة طبعا عرضا مفاده أن تتخلى الحركة عن صفتها السياسية وتمكن في مقابل ذلك من ترخيص قانوني لجمعية ثقافية ولكن قوبل العرض بالرفض. وبعد ذلك بأسابيع عقد المؤتمر الثالث للحركة وكان مؤتمرا إنتخابيا فحسب لإضفاء المشروعية على قيادة الحركة التي ظلت مؤقتة من تاريخ الإعتقال في 1981 حتى 1984. كما أقر المؤتمر مواصلة مشروع الأولويات لرسم الهوية الجامعة للحركة فكريا وسياسيا. وكان ذلك الإفراج مناسبة متجددة لإقبال الشباب على الحركة إذ تضاعف عدد المنتمين إليها بأضعاف مضاعفة ولم تكن آلتها التنظيمية الداخلية تستوعب تلك الأعداد الكبيرة لتوفر لهم ما يلزمهم من جرعات تربوية ووجبات تزكوية وتوعوية ولذلك إستخدمت المساجد ـ ومن قبل ذلك بكثير ـ لعقد حلقات عامة أسبوعية في العادة تعالج مثل تلك القضايا وكذلك قضايا فكرية ملحة من مثل مقاومة الفكر الوافد. وفي عام 1985 وقع تأسيس الإتحاد العام التونسي للطلبة بعدما صوت أغلب الطلبة يومها لصالح مقاربة التأسيس ـ أي لجهاز نقابي طلابي ـ بدل مقاربة المواصلة والإستئناف. أي لمؤتمر قربة في عام 1972 الذي عهد إلى هياكل نقابية مؤقتة بالعمل النقابي الطلابي وكانت تسمى إختصارا في الحياة الجامعية (ه ن م). تحصل الإتحاد على تأشيرة عمل قانونية. ولم تخل الحياة الجامعية من تشابكات عنيفة بين الطلبة إذ جدت عام 1982 معركة شرسة جدا بين بعض الفصائل في كلية منوبة وأفضت إلى جرحى وسجون.
غابت مجلة المعرفة في تلك السنوات فلم تتردد الحركة في توفير منبر إعلامي خارجي فكانت مجلة المغرب العربي في البداية وكانت مواكبة للثورة الإيرانية التي إنشغلت بها الحركة كثيرا وتأثرت بها كثيرا سيما في جانبها المقاوم وإنتاج مفاهيم المقاومة ومدلولاتها. هي مجلة إكترتها الحركة من صاحبها (محيي الدين عطية) عام 1979 الذي جمدها منذ سنوات وبمثلها إكترت الحركة من بعد ذلك مجلة إسمها الحبيب للغرض ذاته ولكنها لم تعمر طويلا. كل تلك التجارب الإعلامية كانت بين قوس البداية الذي كان الشرف فيه للمعرفة وبين قوس النهاية الذي كان الشرف فيه للفجر. حتى المنابر الإعلامية الداخلية لم تكن تحبس داخل الصف في تلك الأيام إذ كان كثير منها يوزع في المساجد وخارجها. من مثل منبر عمر طويلا نسبيا إسمه : المسار. ثم جاء موعد المؤتمر الرابع ليكون أول مؤتمر مضموني معمق وكانت مهمته كبيرة إذ عرضت

عليه خلاصات تقويمية ظلت تعتلج في الصف الداخلي منذ عام 1982 وكان إنتاجه ثلاث وثائق حددت هوية الحركة إلى حد بعيد جدا وهي : الرؤية الفكرية والمنهاج الأصولي للحركة وهي وثيقة عقدية فكرية كان لها الفضل في توحيد صف الحركة وترسيخه على مقتضى الوسطية والإعتدال والتوازن تفكيرا وإصلاحا. ووثيقة أخرى حملت إسم : الإستراتيجية المؤقتة للحركة وهي وثيقة رسخت الهوية السياسية للحركة ومنهاجها التغييري بمثل ما أثقلت ذلك بحمولات فكرية وثقافية تبوئ الحركة ورسالتها في محضنها الإسلامي الوسطي. ووثيقة ثالثة أخيرة حملت إسم : ورقة في سياساتنا التنظيمية وكان شعارها : التنظيم لأجل الفعل خارجه. وهي معالم الوعاء القابل الكفيل بترجمة تينك الوثيقتين. كان ذلك المؤتمر في الأيام الخمسة الأخيرة من عام 1986. وبذلك أوشك العصر الذهبي للحركة على الإنقضاء وبمثله أوشك غض الطرف النسبي من لدن بورقيبة على الإنقضاء كذلك إذ ستبدأ أقوى حملة إعتقالات ضد الحركة من بعد ذلك بشهرين ونيف فحسب وسيكون أول معتقل هو رئيس الحركة يوم 9 مارس 1987. لم يكن السبب الحقيقي معروفا على وجه الدقة. ربما يكون نشاط الحركة المتزايد في الجامعة والمعاهد ودور الثقافة وفي المحاضن الترابية الأخرى وربما بإثارات من التيار المتشدد داخل الحزب الذي يقوده محمد الصياح الطامح إلى خلاقة بورقيبة سيما أن الرجل يومها في حالة شبيهة جدا بأرذل العمر ومعركة الخلافة أعلنت شبه رسمي في تلك السنوات. وربما بإيعاز خارجي وإن لم يكن الرجل ـ لفرط إعتداده بنفسه وليس لعدم ولائه للوافد وخاصة الفرنسي ولاء ثقافيا وفكريا وليس ولاء يجعل منه خائنا بالمعنى المعاصر والمعروف للخيانة ـ من النوع الذي يتحرك كما يتحرك البيدق. وربما لأن رئيس الحركة عاد إلى المساجد من قبل حملة الإعتقالات بأسابيع قليلة ليواصل عمله التدريسي التوجيهي المعتاد وبذلك يثير حفيظة خصومه بأن يكون قائدا سياسيا وقائدا دينيا. المهم أن الأمرين المشار إليهما آنفا أوشكا على النفاد. مما لا بد من ذكره كذلك أن الحملة الثانية من الإعتقالات التي يشنها بورقيبة ضد حركة الإتجاه الإسلامي (الأولى 1981 والثانية 1987) سبقتها مداهمات لعدد من المنازل " المشبوهة " فأسفرت تلك المداهمات البوليسية عن أكبر ثاني إنكشاف تنظيمي في الحركة وهو المعروف داخليا بإنكشاف الزهروني في النصف الثاني من 1986. كان إنكشافا كبيرا جدا إذ كان ذلك المنزل يحوي أرشيف الحركة وقيادتها الإدارية حتى ووجهت ـ أنا بنفسي ـ في اليوم الأول من إعتقالي في مارس 1987 بالأرشيف الخاص بمنطقتنا ـ منطقة مدنين التي كانت تحمل عدد 16 ـ ولما نظرت أمامي في السقف المخصص لجزء من ذلك الأرشيف المحجوز (مكتب المحقق والجلاد رضا الشابي وبإشراف الجلاد السباعي والجلاد الأكبر منصف بن قبيلة) رأيت بأم عيني هاتين أسماء المناطق وأرقامها مرسومة على علبة كبيرة تحتوي على الأرشيف الخاص بها. تفرغت الحركة بالكامل لمواجهة الإعتقالات التي كانت عنيفة وشاملة إذ وقع إعتقال ما يناهز عشرة ألاف كما وقعت حالات تعذيب بشعة راح ضحيتها عدد من المعتقلين. لم يكن يومها مدير غرفة العمليات في وزارة الداخلية سوى المخلوع بن علي ذاته وهو الذي أتي به من قبل ذلك بسنوات قليلات والذي سيقع ثوابه من لدن بورقيبة ذاته جزاء له على حسن إدارته لملف الإعتقالات ضد الإسلاميين وسيكون بمقتضى ذلك وزيرا للداخلية بما يمكنه من الإنقلاب على سيده من موقعه ذاك بيسر وسهولة وبسرعة قياسية كذلك قاطعا الطريق

أمام طابور ظل يخطط لوراثة الخلافة منذ سنوات طويلات وأبرزهم محمد الصياح المدعوم يومها من وسيلة بن عمار رحمها الله. سيرت الحركة لمقاومة الإعتقالات مظاهرتين كبيرتين ضمتا ما بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفا من المتظاهرين في تونس العاصمة وذلك في 23 أبريل 1987 وهي المظاهرة التي جعلت بورقيبة يقرر مقاضاة المتهمين ـ سيما القيادة ـ أمام محكمة أمن الدولة التي ستظل منتصبة برئاسة محمد الزمال ـ الوكيل العام للجمهورية ـ شهرا كاملا في صائفة العام ذاته والتي ستنطق بزهاء أربعة أحكام بالإعدام شنقا وسيقع تنفيذ إثنين منها (بولبابة دخيل ومحرز بودقة اللذين أعدما يوم الخميس 8 أكتوبر 1987). أما المظاهرة الألفية الثانية فقد جدت في شهر أوت من العام ذاته وفي أثناء إنعقاد المحكمة اللادستورية ـ أي محكمة أمن الدولة التي تنتصب في تونس للمرة الثالثة في تاريخها الحديث : مرة لمحاكمة أحمد بن صالح ومرة لمحاكمة الحبيب عاشور ومرة لمحاكمة الإسلاميين ـ وذلك لمواجهة الإعدامات المنتظرة إذ كان ينتظر رئيس الحركة حكما بالإعدام ولو كان فارا ـ مثل الجبالي والعريض ـ لحكم عليه بالإعدام مثلهما ولكن شاءت أقدار الرحمان سبحانه أمرا آخر. كان أداء الحركة في تلك المحنة أداء إيجابيا إذ إعتمد المقاومة الإعلامية النشيطة جدا في الداخل والخارج والمقاومة الحقوقية والمقاومة المدنية أي تنظيم المظاهرات السلمية. كان ذلك أمرا شد إليه جزء كبيرا من الرأي العام الدولي الذي إستسلم إلى نظرية إستبدال بورقيبة بسبب كبر سنه وعجزه وتسلل الذئاب إلى مخدعه ليظهر في صورة الفأر المذعور الذي يعين وزيرا بالضحى ليقيله بالعشي وكذلك للحيلولة دون وصول الإسلاميين إلى السلطة في بلاد تعد مركزا إستراتيجيا مهما جدا للدوائر الدولية المؤثرة فضلا عن موقعها الجغرافي ومعطيات أخرى يضيق المجال عنها الآن. وما إن أوشك عام المواجهة 1987 على الإنقضاء حتى أرخت السجون ذيولها علينا وبينما كان بورقيبة يرتب لإعادة المحاكمة لحصد رؤوس أخرى أينعت من قيادة الحركة كانت الفرصة مواتية للقوى الدولية المؤثرة لترتيب إنقلاب أبيض يقوده وزير الداخلية المخلوع بن علي ضد بورقيبة. ورد الخبر إلينا عن طريق حارس السجن فجرا يوم السبت 7 نوفمبر 1987 فلم نتردد في أن المنقلب هو محمد الصياح وإنتابنا الخوف. وبعد برهة زمنية قصيرة علمنا أن المنقلب هو قائد غرفة العمليات ضدنا في وزارة الداخلية أي المخلوع بن علي فأنتابتنا دهشة عميقة. أنى لمثل هذا أن يتربع على عرش تونس؟ لم يعد يفصلنا عن إنقضاء هذه المرحلة في تاريخ الحركة (مرحلة الحزب السياسي) إلا عامان. عقدت الحركة مؤتمرها الخامس في ربيع 1988 إذ لم يبق في السجن يومها سوى القيادة المحاكمة أمام أمن الدولة وكنا يومها زهاء ثلاثين نفرا تقريبا. أكد المؤتمر أولوية المسألة السياسية لحسن التفاعل مع المناخ الجديد. كان المناخ مثقلا جدا بالمجموعة الأمنية وهو موضع يعرض الحركة إلى مسؤولية تاريخية كبيرة فلم يكن لها من خيار يومها سوى حسن التفاعل مع المناخ الإنقلابي الجديد لإستلال تلك المجموعة من بين فكي المخلوع إذ لو أراد المخلوع إعدام المجموعة أو بعضا منها على الأقل لما حال دونه حائل بسبب ما يشيع هو ومن معه أن المجموعة كانت تخطط لإنقلاب عسكري ولم يحدث في التاريخ أن مجموعة تعرضت لمثل تلك التهمة ثم خرج واحد منها إلى بيته إلا محمولا على آلة حدباء كما يقول الشاعر كعب إبن زهير في بردته الشهيرة. ولذلك بادر الشيخ راشد بتصريح في شهر

جويلية 1988 ـ أي في إثر خروجه من السجن ـ يعتبر فيه أن مجلة الأحوال الشخصية تندرج ضمن الإجتهاد الإسلامي كما تقابل مع المخلوع وجعل الرويسي ساعي بريد بينهما. وفي عام 1989 أنشأت الحركة إستفتاء قاعديا عريضا جدا وموسعا جدا حول تغيير إسمها فكانت النتيجة بنسبة كبيرة إلى إسم جديد هو : حركة النهضة بدل الإتجاه الإسلامي ومعلوم أن إسم الإتجاه الإسلامي إسم لم تختره الحركة ولكن صادقت عليه في أول مؤتمر إستثنائي في ربيع 1981 وذلك تماشيا مع الإسم الذي وضعه الإعلام يومها للدلالة على الصحوة التي أثمرت الحركة فكان إستصحاب الإسم الإعلامي يومها هو الأنسب. وفي العام ذاته أي 1989 شاركت الحركة بصفتها المفهومة ولكن بطريق نور الدين البحيري من حيث المنطوق في التوقيع على الميثاق الوطني الذي ضم إليه عددا كبيرا من الأحزاب والتيارات والجمعيات والمنظمات والفعاليات الوطنية ليكون خارطة طريق سياسية جديدة. أسست الحركة جريدة الفجر التي بالكاد رأت النور ثم توالت في وجهها العقبات حتى أكرهت على الإختفاء ثم أكرهت الحركة بأسرها على ذلك إذ حل ميعاد الإفتراق النهائي بين الدولة وبين الحركة وذلك بمناسبة مشاركة موسعة جدا للحركة في إنتخابات 2 أبريل 1989 وكان لها نصيب الأسد سيما في الحواضر والمدن الساحلية الكبرى وهو الأمر الذي أضطر النظام إلى أن يسند إليها خمس أصوات الناخبين مذكرا بما أقدم عليه بورقيبة عام 1981 لما فعل الأمر ذاته بمناسبة فوز حركة المستيري. إستورد النظام خطة ماسونية أعلن عليها كاملة الإعلامي العربي المعروف فهمي هويدي في مجلة دورية خليجية عام 1989 وقال إن الخطة موجهة إلى كل من تونس ومصر وقد وفدت إلى جهاز (الفاكس) لديه عن طريق الخطإ. كما تحصل على الخطة ذاتها من مكتب أحد وزراء المخلوع طالب معروف لا أغامر الآن بذكر إسمه إذ لم يكن من بين المعتقلين .كان لا بد إذن من الفراق بل من المواجهة. حركة خرجت من محنتها منتصرة سيما بسبب الإنقلاب. حركة أفلتت من شنيعة الإعدامات في صفوف مجموعتها الأمنية وهو أمر لم يحدث في التاريخ العربي. حركة رفعت الضوء الأحمر القاني في وجه المخلوع وهو في أيامه الأولى في السلطة وذلك من خلال إنخراطها في العملية الإنتخابية بقوة وحصولها على الأغلبية بما رفع وتيرة الإحراج لدى المخلوع إلى أقصى درجة. حركة سياسية تحتكر دهاء سياسيا يمكنها من التوقيع على الميثاق الوطني حتى وهي تتحفظ على بعض القضايا المتعلقة بثقافتها ومنظومتها القيمية. هذه حركة لا تعد سوى حجر عثرة في وجه المشروع البورقيبي الجديد الذي إنتدب المخلوع من لدن دوائر خارجية لمواصلة تنفيذه. تواصل ذلك المشروع وتواصل هذه الحركة هما أمران لا يسيران جنبا إلى جنب إلا ليصطدما في أول فرصة مناسبة. الأجواء الدولية والمناخات العربية مواتية جدا للتخلص من هذه الحركة كما سنرى من بعد ذلك بقليل. إذن بدأت المواجهة كالعادة بالإعتقال وحجب لسان الحركة أي جريدة الفجر. كان الإذن الرسمي الحقيقي يوم 23 ديسمبر من عام 1990 لتشمل الإعتقالات أزيد من مائة منهم الناطق الرسمي بالنيابة علي لعريض والدكتور الدولاتلي. حاولت الحركة مواجهة الحملة إعلاميا وذلك من خلال الإعلان عن كل مكاتبها التنفيذية والإعلامية والسياسية وطنيا وجهويا. بدأت وتيرة المواجهة من لدن المخلوع بن علي سريعة وعنيفة ومتخطية لكل الحدود الحقوقية والدولية. الرجل سيكون من بعد ذلك بقليل مكتشفا دوليا لمصل لم يسبق إليه هو مصل

كفيل بسرعة إستئصال " التطرف والإرهاب الإسلاميين ". سيعامل من بعد ذلك بقليل على أنه مكتشف ذلك الدواء الذي سيكون العالم بحاجة ماسة إليه بمناسبة تفرد القطب الأمريكي بقيادة العالم في إثر سقوط الدب الروسي بطعنات القلاسنوست والبروسترويكا على يد آخر رئيس للإتحاد السوفييتي أي قورباتشوف عام 1989. ثم جاءت الندوة الصحفية لعبد الله القلال وزيرالداخلية لدى المخلوع بن علي في ماي 1991 لتعلن حالة جديدة في البلاد. حالة غير مسبوقة. حالة الدبابة المتعجرفة التي يسوقها أعمى ويطأ بها الذي أمامه. دبابة تطلق النار وتقصف في كل إتجاه. دبابة تعصف بكل ما يمت إلى الإسلام بأي صلة. النظرية الجديدة هي : لا سبيل لقطع دابر أي حركة إسلامية ـ سيما إذا كانت تتجرأ على المنافسة السياسية في الزمن الصهيوأمركي ـ إلا بالحيلولة دونها ودون منابعها الغذائية الأولى أي الكتاب الإسلامي والإعلام الإسلامي والشريط الإسلامي والكلمة الإسلامية بصفة عامة حتى لو كانت شعرا أو رسما ساخرا (كاريكاتورا). تلك هي خطة تجفيف المنابع التي تعد القرآن مسؤولا عن إنتاج الإرهاب وتشجيع التطرف. ولذلك إنتدب رجل مثل محمد الشرفي ليكون وزيرا للتربية في زمن المخلوع وكان دوره تنقية المقررات الدراسية مما يمت إلى الجهاد والمرأة وغير ذلك بأي صلة.وبالمناسبة أصدرت الحركة بإمضاء الشيخ عبد الفتاح مورو في ذلك العام بيانا سياسيا رسميا تطالب فيه بإستقالة وزير التربية محمد الشرفي. وهو أمر لم يقع في الحياة السياسية التونسية من قبل ذلك وربما حتى في الحياة السياسية العربية إذ إستعظمت الطبقة السياسية الأمر ورأت فيه أمرا مخالفا للمألوف وأنى لحركة سياسية معارضة أن تطالب بإقالة وزير. الأمر في الديمقراطيات الأوربية ـ حتى الناشئة منها والمتواضعة ـ مألوف ومعروف ولا يقابل بأي نكير من حيث أصله وليس من حيث مقتضاه. لا يعني ذلك أن حركة النهضة لم ترتكب أخطاء سياسية. أبدا. ولكن ذلك لا يبرر إخفاء التاريخ أو الصمت حيال حقائقه الناطقة. وبذلك إنتهت مرحلة ثانية من مراحل تطور الحركة. لتدخل الحركة إذن مرحلتها الثالثة أو طورها الجديد. طور لم تعهده من قبل قط. طور المقاومة : مقاومة بالصمود في السجون. ومقاومة بالعمل إطفاء للحريق الناشب في البلاد من لدن المنفيين والمهجرين. مقاومتان تجمعهما كلمة واحدة : حرب الإرادات. الإرادة المنتصرة هي الإرادة الوريثة لتونس. لننظر من إنتصرت إرادة المخلوع بن علي أو إرادة الحركة ومن معها من شركاء المقاومة من الوطنيين. ثبتت الحركة من بعد ذلك في وثائقها التقويمية المنشورة رسميا وقانونيا أن مشاركتها الواسعة في إنتخابات 2 أبريل 1989 كان خطأ سياسيا بل خطأ أمنيا كذلك. كما ثبتت أن بعض مواقفها من حرب الخليج كانت خاطئة سيما ما ذهب منها إلى حد بعيد أي مساندة صدام ـ عليه رحمة الله ـ في غزو الكويت. كما ثبتت أن إنخرام الميزان ـ ميزان الأداء وليس ميزان التصور ـ فيها لفائدة العمل السياسي على حساب العمل الدعوي والثقافي والفكري كان خطأ. وأخطاء أخرى لم يتردد التقويم المعلن المنشور في ترسيخها. وفي الجملة كانت للحركة أخطاء سياسية ـ ومن باب أولى وأحرى أخطاء أمنية ولكن الأخطاء الأمنية تكون داخلية في العادة ـ وأخطاء في الأداء العام ليتورم هذا على حساب ذاك. ولكن الذي نجى الله الحركة منه هو : الأخطاء الوطنية من مثل التورط في العنف أو الإرهاب أو الحرب الأهلية بله الخيانات الوطنية أمنيا وعسكريا أو نبذ الهوية العربية الإسلامية أو غير ذلك مما يتعلق بالهوية

الجامعة الكلية لتونس وللأمة جمعاء قاطبة. كما سجلت الحركة في تلك التقويمات المنشورة خطأ سياسيا سمته الزهد في مواضع زمنية سياسية محددة في دفع الإشتراكية السياسية دفعا عمليا مع الشركاء الوطنيين بما يسر لنظام المخلوع بن علي الإنفراد بها. وأخطاء أخرى من ذلك القبيل. كذلك لا تعد الأخطاء الإدارية أخطاء تذكر لأنها داخلية قحة.

مما يذكر كذلك أن المخلوع بن علي أصدر قانونا سماه قانون عدد 29 بتاريخ 3 ماي 1988 وهو متعلق بالمساجد وكان سيفا مسلطا على الوعاظ والدعاة والمربين أن ينبس واحد منهم ببنت شفة في موضوع ديني أو غير ديني دون ترخيص مسبق من إدارة الشعائر الدينية التي كانت تخضع لهيمنة المخلوع بن علي. لا يعدم أحمق ذكاء يعلمه أن مبادرة المخلوع بن علي لسن ذلك القانون ـ وهو حديث عهد بسلطة ـ لا تندرج سوى ضمن وضع يده على المساجد تجفيفا للمنابع وسحبا للبساط من تحت أرجل الحركة الإسلامية التي تتغذى من المساجد تغذية روحية وفكرية وعلمية وأن الرجل يخشى المسجد ـ ذلك السلطان الشعبي الأكبر الذي كان على مدار التاريخ الإسلامي خندقا من خنادق الثورة ضد حكام الجور والقهر ـ أن يتمتع يوما بحريته فيهز عرشه المتهافت.

كما يذكر كذلك أن أول من قضى نحبه في مخافر وزارة الداخلية في عهد المخلوع بن علي متأثرا بالتعذيب هو الرائد المنصوري.

وكان المخلوع بن علي الذي ليس له من خيار سوى التمسح الكاذب بالإسلام قد أنشأ مجلسا أعلى للشؤون الإسلامية وعين الشيخ عبد الفتاح مورو عضوا فيه في حركة رمزية مزدوجة : رسالة إلى الشعب تؤكد تعلق السفاح بالإسلام ورسالة إلى الحركة تؤكد حسن نيته حيالها.

بقي أمران لا بد من الإشارة إليهما في هذه العشرية : أولهما مؤامرة حكومية إستهدفت الإتحاد العام التونسي للشغل عام 1985 وكانت إرادة بورقيبية ينفذها مزالي إذ كانت المؤامرة هي صناعة كيان وهمي عمالي يكون ضرا للإتحاد الشرعي وهو الكيان المصنوع تحت إسم الإتحاد الوطني ولم يعيهم أن يجدوا له بيدقا من البيادق المفلسة (هو بوراوي) ولكن سلم الله سبحانه بإعتصام النقابيين بإتحادهم ومقراتهم وتكافل التونسيين معهم وبعد صمود دام شهورا رحل بوراوي ومن معه من بيادق بورقيبة إلى مزبلة التاريخ وبقي إتحاد الشغل مرفوع الرأس. نقاط الخلاف بين الإتحاد وبورقيبة يومها غير يسيرة ولكن يبدو أن الذي أكره بورقيبة على وأد الإتحاد الشرعي وإستبداله بإتحاد ضرار هو الضغط الذي يتعرض له من لدن البنك الدولي ومؤسسات مالية دولية أخرى بقصد إنفاذ مشروع إقتصادي " إصلاحي " عاجل تريد تلك المؤسسات الرأسمالية الجشعة فرضه على عدد من الدول ومنها تونس وسمي المشروع : برنامج الإصلاح الهيكلي على غرار قانون أفريل 1972 إذ أم المشكلة هي دوما : إخضاع إرادة الحكومات لسياسات إقتصادية ومالية وجبائية وإستيرادية تضمن " التجارة الحرة " للبضاعة الغربية ـ بضاعة شمال الأرض ـ بإعفاءات جبائية لتتمكن من المنافسة ومن فرض المقايضات وتوجيه الإقتصادات المحلية إلى مربعات إنتاج المواد الخام والتفويت فيها بأسعار بخسة للسوق الدولية

لتصنع هناك وتعود معلبة إلى مسقط رأسها بأثمان عالية. لم يقبل إتحاد الشغل بهذه المهانة المكابرة فكان الذي كان. ثاني الأمرين هو هجوم نفر من الشباب ـ لا يزيد عددهم عن عدد أصابع اليد الواحدة ـ على مصرف مالي بصفاقس وإختلاس أموال إما لتمويل تنظيم شبيه جدا بالتنظيمات " الجهادية الإسلامية " المعاصرة أو لتنفيذ عمليات تخريبية وكان ذلك عام 1985. هز الحادث البلاد إذ أنه أول حادث من نوعه. فر بعضهم إلى المملكة العربية السعودية التي سلمت رجلا إسمه الحبيب الضاوي ولم يتردد بورقيبة في إعدامه ولا أدري مصير من معه. أشيع يومها ـ والله أعلم ـ أن أحد الرجال كانت له علاقة بالحركة. ربما علاقة تعاطف من بعيد أو شيئ من هذا القبيل. فإذا كان الأمر كذلك فقد تخلصت الحركة من رجل ينتمي لها ولكنه يعمل ضد خياراتها وسياساتها. ثم مات مثل ذلك الطيش ليظهر من بعد ذلك في مناسبات قادمة أخرى أي بعد عقود أخرى.

المناخات العامة المحيطة بهذه المرحلة.

بدأت هذه المرحلة (مرحلة التأسيس السياسية الثانية من 1979 حتى 1989) بأول أكبر حدث دولي طرا في النصف الثاني من القرن الميلادي المنصرم أي إندلاع الثورة الإيرانية في فبراير من عام 1979. لم يكن الحدث تقليديا عاديا بكل المقاييس وذلك بسبب إقتلاعه لشرطي الخليج الأمريكي بإمتياز شديد أي النظام الشاهنشاهي الإيراني. للثورة الإيرانية ملامح أخرى كثيرة ومهمة ترشحها في تلك الأيام لتحتل صدارة الأحداث الزلازل في المنطقة. من تلك الملامح أنها ثورة تستند إلى الإسلام بحسب الخطاب الثائر الهادر يومها. الحقيقة أن ثورة مثل تلك الثورة طواها التاريخ منذ أحقاب بعيدة جدا. الثورة من حيث أنها ثورة المستضعفين ـ بتعبيرها وهو تعبير إسلامي قح كذلك ـ ضد المستكبرين إنما تحيي أحانين غائرة. هي تحكي الثورات الإسلامية الأولى ضد الأمويين والعباسيين. لم يكن البعد الطائفي للثورة الإيرانية في البداية بارزا رغم أن ذلك البعد يتضمنه الدستور الإيراني في بنده الثاني مباشرة إذ ينحاز بصراحة إلى تبني المذهب الإثنا عشري. ضجيج الثورة والدعوة إلى تصديرها وأشياء أخرى جعلت الناس في الشرق والغرب يصمتون عن ذلك أو لا ينتبهون إليه أصلا أو يغضون الطرف عنه. كانت الثارات ضد الخيار الأمريكي في المنطقة هي المقدمة ولذلك يتعاطف الناس في الشرق والغرب مع كل ثورة تخاصم ذلك التوجه فإذا حدث أن إقتلع شرطي من شرط أمريكا فإن الفرحة تطير بالناس طيرانا.

قوانين المرحلة وعوامل أخرى من مثل الموقع الإستراتيجي لإيران وثقلها السكاني ومساحتها الجغرافية كلها أمور مهمة ولكن الذي يهمنا هنا هو تفاعل الحركة الإسلامية معها. كان تفاعلا إيجابيا جدا. كان تفاعلا ملؤه الإنبهار والإعجاب. تأويل ذلك مفهوم جدا ولا يحتاج إلى مزيد من المداد. الحركة كانت في أطوار الإضطهاد مما دفعها إلى السرية. وإذا بثورة " إسلامية " تنتصر وتفجر المطالب ذاتها بل تحولها إلى واقع ملموس. أنى لنا ألا نتأثر بذلك أيما تأثر. لا بد من التذكير بأن الوعي السياسي والتاريخي لم يكن في المستوى المطلوب. لم يكن ينتظر أحد من ثورة إختارت الطائفية مسلكا دستوريا معلنا أن تكون بريئة في تصديرها الثورة. ساندت الحركة

الثورة بأقصى ما يمكن إعلاميا وغير ذلك في غفلة عن حمولاتها الطائفية والمذهبية ثم دفعت " الفاتورة " كاملة في أول محاكمة كبرى لقيادتها أي محكمة أمن الدولة في صائفة 1987. لما أعيت بورقيبة الحيلة أن يظفر بدليل ملموس يؤكد تهمته إيانا بالتخابر مع دولة أجنبية بغرض الإنقضاض على السلطة عمد إلى إعتقال شابين لا علاقة لهما البتة بالحركة لا من قريب ولا من بعيد ولكن حشرهما معنا بسبب أنهما شاركا في مسابقة لحفظ القرآن الكريم وتلاوته قبل ذلك بشهور في طهران. ثم أطلق رئيس محكمة أمن الدولة سراحهما. ليس تأثيما للحركة أنها ساندت الثورة الإيرانية دون حساب إذ أن الحركة لم تتأثر ـ لا من قبل ولا من بعد ـ بالتلوثات الطائفية والمذهبية لا من قريب ولا من بعيد. ولكن لا بأس من القول بأن الوعي الجمعي العام في الحركة يومها لم يكن يدرك معاني وحمولات ودلالات البعد الطائفي المذهبي السياسي المعاصر للشيعة. لم يظهر ذلك من الثورة من أول يوم. ولكن كان علينا قراءة ذلك وهو أمر مرسوخ في التاريخ السياسي للأمة لو كنا نقرأ التاريخ السياسي للأمة يومها.

ومن الأحداث المحيطة كذلك ـ وقد وقعت الإشارة إليها آنفا وربما بشيء من التوسع ـ محاولة القذافي الإنقلاب ضد بورقيبة من خلال هجومه ضد قفصة عام 1980 وشنه بالتوازي مع ذلك حملات إعلامية دامت شهورا طويلة. ومازال فرار الثور المصري إلى إسطبل داوود يتفاعل. أي إتفاقية العار عام 1978 ليقع إغتياله في أكتوبر 1981. تصاعدت في ذلك الوقت التحركات التلمذية في المعاهد وعكفت عليها الحركة حتى كادت الورقات المنجزة يومها تفضي إلى إنجاز نقابية تلمذية ولكن عاجلتنا الأحداث الكبرى الأخرى. كانت المقاومة الفلسطينية يومها مستعرة في الجنوب اللبناني ليتولى شارون من بعد ذلك طرد المقاومة كلها إلى تونس ثم ليقع إغتيال أبي جهاد من بعد ذلك بسنوات قليلات أي عام 1986 بحمام الشط.

من الأحداث المحيطة والمهمة يومها كثيرا ميلاد حركة حماس الفلسطينية في عام 1987 وهي أول حركة مقاومة عسكرية فلسطينية تنشأ من بعد حركة فتح وإنتظامها ضمن منظمة التحرير الفلسطينية (1964) وهي الحركة التي سيكون لها اليد الطولى ـ وحتى يومنا هذا ـ في المقاومة العسكرية الفلسطينية. صمود تلك الحركة والحميم ينهال عليها أرضا وجوا وبحرا والعرب ينكرونها وهي مصنفة إرهابية من قبل الميلاد والأهم من ذلك كله ولادتها والغطاء الروسي يحتضر .. ذلك الصمود في وجه تلك الأعاصير والمناخات هو الصمود الأسطوري إذا جاز لنا أن نقول أن هناك فوق الأرض صمود أسطوري.

وفي عام 1989 ـ أي آخر عام من هذه المرحلة ـ ينجح قورباتشوف في تفكيك الدب الروسي عن طريق إصلاحاته الداخلية أي البروسترويكا والقلاسنوست. وهو ثاني أكبر حدث دولي مطلقا ـ من بعد الثورة الإيرانية ـ في النصف الثاني من القرن الميلادي المنصرم. كان ذلك السقوط المدوي إيذانا بتراجع الشيوعية والإشتراكية في العالم بأسره بمثل ما كان إيذانا بإستقالة القطب الشيوعي من قيادة العالم لينفرد بها القطب الأمريكي. ملحظ التطور الأكبر ليس ذاك بالتحديد ولكن الملحظ الأكبر المهم هو : تعرية الحلف العربي والإسلامي والإفريقي والأسيوي والجنوب أمريكي (الحلف المسمى في القديم عدم الإنحياز والمسمى من بعد ذلك وقبله العالم الثالث) لأول

مرة من غطاء دولي يؤمن له بعض الحاجات التي قد لا تسمن ولا تغني من جوع ولكن لا بد من ذلك في منطق التوازن الدولي القطبي فحسب. ذاك أمر تعيى عنه عقول كثير من المتدينين اليوم. لا ينظرون إلى القضية إلا من كوة واحدة هي الكوة الدينية العقدية. ذلك قصور واضح وكبير بل هو عيب في الوعي. لا يعد سقوط الشيوعية ـ رغم العداء العقدي بينها وبين الإسلام في الأصل ـ سوى رفع الغطاء الدولي عن تلك الدول والحكومات التي سرعان ما هرعت إلى القائد الأمريكي الجديد. ذلك هو ما يفسر ـ ولكنه لا يبرر ـ فرار المرحوم عرفات إلى مدريد مباشرة عام 1991 ثم إلى أوسلو عامين فحسب من بعد ذلك (وإن كان الفرار إلى أوسلو مبالغا فيه من لدن عرفات نفسه غفر الله له ورحمه) أي عام 1993 ثم كان وادي عربة عاما واحدا من بعد ذلك أي عام 1994. أي أن أكبر متضرر من ذلك السقوط المهيب الرهيب هو الحركات التحررية في العالم العربي والإسلامي والعالم الثالث بصفة عامة. لم يقتصر الأمر عند ذلك الحد ـ وما كان له أن يقتصر عنده في منطق التوازنات السياسية الإستراتيجية الدولية المنخرمة ـ بل شنت طبول الحرب ضد البلقان المسلمة في قلب العقد التسعيني. وسال لعاب القطب الأمريكي الذي يمسك بالناتو (الحلف الأطلسي العسكري المعروف الذي ظل في خصومة ساخنة ثم باردة مع غريمه حلف فارسوفيا على إمتداد عقود طويلات) فإتجه شرقا إلى الجمهوريات الإسلامية التي كانت تخضع للإحتلال الروسي يبتلعها واحدة من بعد واحدة مرة بالحديد والنار وأخرى بإسم التوسع المطلوب لمنطقة اليورو (العملة الأروبية الجديدة التي جاءت قبل ميلاد المنظمة الدولية للتجارة أي في الفاتح من يناير 2005 والتي سماها الدكتور محمد عمارة بحق الإحتلال الإقتصادي الجديد والتي عوضت إتفاقيات " القات " التجارية الشهيرة).

بدأت إذن المرحلة السياسية الجديدة ـ لحظة التأسيس السياسية الثانية في الحركة ـ بالثورة الإيرانية عام 1979 فلم تكن تلك الثورة نصيرة للمستضعفين من المسلمين بله العرب وغيرهم من الأحرار المكافحين بل ربما كانت خصيما في أحايين كثيرة. وإنتهت المرحلة ذاتها بسقوط الدب الروسي ليتعرى ظهر الحركات التحررية في العام العربي والإسلامي والعالم الثالث بصفة عامة ويرفع الغطاء السياسي وتصبح وجها لوجه مع القطب الأمريكي أي عام 1989.

تطور آخر جديد لا بد من عدم الغفلة عنه ـ وإن كان تأثيرة سيخفت بسرعة نسبيا ـ وهو الإنقلاب العسكري الذي أنجزته الجبهة القومية الإسلامية في السودان بزعامة الدكتور حسن الترابي ضد النظام في آخر يوم من أيام حزيران يونيو من عام 1989.

هي إرهاصات جديدة لمناخ إسلامي جديد. كانت أعناقنا تشرئب في سبعينيات القرن الميلادي المنصرم إلى أفغانستان حيث يسجل المجاهدون هناك بطولات عسكرية وقتالية وجهادية عظيمة ضد المحتل الروسي. بزغت أسماء في سماء العالم الإسلامي يومها من مثل : قلب الدين حكمت يار وعبد رب الرسول سياف ورباني وغيرهم. فلما تحررت البلاد من الإحتلال الشيوعي ما أخمدت أصوات النيران ليتفرغ المجاهدون إلى بناء دولتهم ولكن توجه بها بعضهم إلى بعض فحدث أكبر مكروه جعل الإعلام يغرس هذه التسمية فينا : الإخوة الأعداء. وفعلا كانوا كذلك. فضيحة رغبت الناس عن الجهاد والمقاومة بل ربما شوهت الإسلام نفسه. فلما جاء الإنقلاب

السوداني كنا نرقبه على حذر أن يحل به الذي حل بالإخوة الأعداء وما هي إلا سنوات قصيرات معدودات حتى حصل المكروه وإن كان بأسلحة تقليدية سياسية لا بنيران صديقة.

لا أظن أن عاقلا في السياسة يظن شيئا آخر سوى أن الحركات التحررية التي خذلتها إيران في البداية ثم جاءت أمريكا لتبتلعها في النهاية هي حركات سيئة الحظ بالتعبير الأدبي. سوء حظ في ظاهره وفي باطنه سيفصح عن مواجهة شرسة بين حركات التحرر وبين أمريكا والصهيونية وربائبهما. مواجهة ستكون من لدن أمريكا بالحديد والنار وبالمقايضات والتهديدات وبالإحتلال والقتل وستكون من جانب حركات التحرر ـ مثل حركة النهضة التونسية ـ بالصبر والمقاومة الصامتة الصامدة في السجون وفي المنافي سواء بسواء. ذلك هو المنظور والمرقوب وذلك هو الذي حصل بالضبط. الأمور محكومة بقوانين وليست سائبة للتخمينات العشوائية. هي قوانين صارمة فمن فقه سنتها وعدل بوصلته دون المساس بمنظومته القيمية فقد نجا ونجى ومن تنكب عن ذلك ففقها أو عملا فمزبلة التاريخ تتسع له ولغيره. بل وتقول " هل من مزيد ".

التأسيس المقاوم الثالث

أو مرحلة الإمتحان الأكبر في مدرسة الحياة

وصلنا إلى المرحلة قبل الأخيرة الممتدة من 1989 حتى إنبلاج ثورة الحرية والكرامة في تونس ليوم 14 جانفي 2011. هي مرحلة جديدة متميزة. أي عنوان يمكن لنا أن نختاره لها؟ لا أجد عنوانا ألصق بهذين العقدين أوفى من : مرحلة المقاومة الحقيقية. المقاومة من أجل الوجود في وجه أعتى حرب إستئصالية إستهدف الحركة. المقاومة من أجل إثبات الذات. هما مقاومتان بل 3 مقاومات كبرى متوازية. مقاومة السجناء الذين ظلوا في السجون زهاء عقدين كاملين (مثال الدكتور الصادق شورو) بل ظلوا في السجن المضيق والزنزانة الإنفرادية سنوات طويلات ربت عن 15 عاما عند بعض منهم. أي أنها حرب تدميرية مفتوحة ليس لها حدود. أجل. هي حرب الإرادات. ومقاومة المنفيين المشردين في أزيد من أربعين بلاد في شرق الأرض وغربها تلاحقهم تهم الإرهاب والتطرف هناك في إثر إعلان المخلوع بن علي نفسه مكتشفا لمصل نافع جدا لمقاومة الإسلام السياسي الذي ينافس على السلطة في الزمن الصهيوأمريكي. ومقاومة المسجونين داخل وطنهم ممن ستر الله عليهم فلم تلتقطهم دبابة المخلوع بن علي أو ممن أبدى يوما تعاطفا مع نهضوي أو حدثته نفسه بإطفاء جوعة لأيتام شهيد ولو برغيف واحد. أولئك تنكرت لهم الدنيا بل ربما تكون محنتهم هي الأقسى إذ ينظرون الإعتقال وما يليه من وجبات

ساخنة من التعذيب في كل آن وأوان. أولئك الذين إضطروا إلى هجر المساجد إلا في الجمعات وفي زحمات الناس ليكونوا داخل الأكوام لا يتفطن إليهم أحد. أولئك الذين كتبت عليهم الغربة بين ذويهم وفوق أديم بلادهم. هي حرب الإرادات بكل معاني الكلمة. إرادة من المخلوع ومن تحالف معه ـ ومن تحالف معه كثير ـ لكسر إرادة السجناء وإرغام أنوف المنفيين المهجرين والضغط على من بقي طليقا وما هو بطليق ليحيق به المثال العربي : يكاد المريب يقول خذوني.

ذلك هو عنوان هذه المرحلة وهي أطول المراحل حتى اليوم إذ إمتدت المرحلة الأولى من 1969 حتى 1979 أي عقدا واحدا وإمتدت المرحلة الثانية من 1979 حتى 1989 أي عقدا واحدا كذلك في حين إمتدت هذه المرحلة قبل الأخيرة ضعف ذلك أي عقدين كاملين. عنوانها الأوفى هو المقاومة أو حرب الإرادات أو مرحلة الدفاع عن الذات وعن الوجود. ومعلوم أن الحركة صنيعة الحرية فهي مثل السمكة التي تقضي بمجرد قطع الماء عن خياشيمها. لا حياة للحركة إلا في الحرية فهي حية وحيوية وفاعلة ومجددة بقدر ما يصل إلى فؤادها من حرية وهي بضد ذلك بقدر إنتفاء ذلك.

من الأحداث الأولى التي شهدتها هذه المرحلة وقوع المؤتمر الثاني للإتحاد العام التونسي للطلبة أي عام 1990 وهو المؤتمر الأخير للإتحاد والذي إنتخب نجم الدين الحمروني خلفا لعبد اللطيف المكي الذي خلف بدوره في المؤتمر السالف أول أمين عام أي عبد الكريم الهاروني عام 1985.

يمكن لك كذلك أن تقول أن المرحلة إنطلقت بمعركة المساجد التي إنخرطت فيها الحركة بقصد تحرير المساجد من قبضة القانون الجائر اللادستوري (قانون 29 لعام 1988) أي تحريرها من ميليشيات التجمع الدستوري الديمقراطي الذي إتخذه المخلوع بن علي ذراعا حزبية على غرار ذراع بورقيبة أي الحزب الإشتراكي الدستوري سوى أن المخلوع بن علي لم يكن يعول كثيرا على هذه الذراع الحزبية إذ أنشأ من الفرق الأمنية السرية الخاصة والعامة ما يكفيه وزيادة لأن يكون كل مواطن تونسي متابعا ومراقبا. وصل عدد أولئك في منتصف العقد التسعيني إلى أزيد من مائة ألف عون. جيش لجب يأكل من أموال الكادحين والبطالين ليحرس أمن المخلوع بن علي وعائلة الطرابلسية. في تلك المعركة (معركة المساجد) كان الإذن واضحا من لدن المخلوع بن علي بإطلاق الذخيرة الحية وبذلك كان شهيدها الشاب الطيب الخماسي الذي كان يوزع على المصلين ورقة تدعو إلى الصلاة. أجل. ورقة تدعو إلى الصلاة فحسب.

كما إنطلقت المرحلة بمعركة المطرودين من أعمالهم من بعد خروجهم من السجن إذ نشأت إعتصامات أمام الوزارة الأولى. بحت الأصوات وهي تطالب بسن العفو التشريعي العام ليكون كفيلا بمحو شيء من الماضي الأليم على المستوى المادي على الأقل ولكن المخلوع بن علي ـ بل من يخططون له السياسات ممن تسلقوا جدران القصر لإقصاء خصم ثقافي وسياسي عنيد وغير تقليدي ـ لم يتقمص الشجاعة الكافية لإصدار ذلك القانون وإكتفى بالعفو الرئاسي الخاص الذي لا يقدم ولا يؤخر إذ لا يملك المتمتع بالعفو الرئاسي حتى من مزاولة حقه الدستوري في الإنتخاب بله الترشح. ومن المطالب التي كانت ملحة في تلك الأيام ولكن الذين يديرون العرش (من مثل

المجرم عبدالعزيز بن ضياء) لا يأبهون بها مطلب المطرودين من الجامعة التونسية بسبب تجنيدهم تعسفيا في رجيم معتوق إنتقاما من إنتماءاتهم السياسية والفكرية.

بدأت هذه المرحلة بدخول السجن لمن دخل السجن وبإختفاء الفارين قبل مغادرتهم أرض الوطن وبإعلان حالة الطوارئ القصوى في البلاد إذ لا صوت يعلو فوق صوت الحرب الإستئصالية العظمى والمفتوحة ضد حركة النهضة أولا ثم ضد كل صوت تحرري يدافع عنها أو عن وجودها ولو كان من دائرة المخلوع بن علي ذاته أو من عائلته أو من أقرب الناس إليه ثم ضد الإسلام الذي يغذي الحركة ثالثا ولذا تنزلت خطة تجفيف المنابع. كان ذلك سريعا إذ إنتظمت تلك الحلقات الثلاث في موفى عام 1991. من أمثلة ذلك التطرف الأقصى في تجفيف المنابع قول علي الشابي وزير الشؤون الدينية يومها أن الزيتونة تخلصت من عقدتها وذلك بمناسبة رعيه لمجموعة من الطالبات اللائي يسبحن شبه عاريات في إحدى مسابح الجامعة التونسية. ثم جاء من بعد ذلك بسنوات أي في ربيع عام 1997 تصريح لأستاذ جامعي في اللسانيات إسمه التهامي العبدلي في جامع عقبة بالقيروان. جاء في التصريح قوله : إن المرء لا يطمئن إلى نسبة القرآن إلى الله بسبب ما يخترم بنيانه القصصي من إهتزاز. ورد ذلك في جريدة الصباح الأسبوعي. وكان ذلك بحضرة السلك الدبلوماسي والطاقم الحكومي وعلى مرأى ومسمع من الدنيا كلها.

مما جرى يومها كذلك ما عرف بمجزرة الجامعة التونسية يوم 8 ماي 1991 حيث داهمت قوات القمع التابعة للمخلوع بن علي الحرمات الجامعية وحاصرتها وعاثت فيها فسادا فقتل من قتل وأصيب آخرون بعاهات شديدة من مثل بوبكر القلالي الذي فقد عينه في تلك المجزرة الرهيبة. كان المخلوع بن علي ومن معه من شراذم الحقارة يدرك جيدا أن " الشر " يقبل عليه وعلى عرشه من الرؤوس التي تفكر وتعرف كيف تفكر وليس من الرؤوس التي فوتت في عقولها إلى غيرها ليفكر بالنيابة عنها. كان لا بد من الإجهاز على تلك الرؤوس حتى يسلس قياد البلاد إلى شاطئ صندوق آثم أنشأه المخلوع بن علي وسماه صندوق 26-26 يملأه بالإتاوات المفروضة فرضا على المواطنين من موظفين وأصحاب مهن صغرى وغيرهم. يملأه بالسحت المسحوت ليكون للنهابة ليلى بن علي مورد متعة ورغد عيش ولمن معها من أزلام سلب وعدوان.

لندع معاناة المساجين الذين قضى منهم تحت التعديب زهاء أربعين ممن وثقت أسماؤهم في سجلات وتقارير المنظمات الحقوقية الدولية .. لندع ذلك إلى شهادات أخرى قادمة لا يليق بالتاريخ أن يصمت عنها إذ الصمت عنها جريمة. لندع ذلك ولننتقل إلى المنافي حيث إجتمعت نخبة من الفارين في ألمانيا عام 1992 تحت سقف ندوة يتحاورون فيها حول هذا السؤال : لأول مرة يتحطم الوجود المؤسسي والهيكلي والمادي للحركة تحطما كاملا ولمواجهة هذا الوضع ما العمل؟ ما هي الأولويات وهل بإمكاننا أن نفعل شيئا لإطفاء الحريق الشاب في البلاد يلتهم كل شيء؟ كان الجواب هو العمل على لم شمل الحركة المهجرة المنفية وعدد أعضائها بالآلاف وذلك إبتغاء التعاون على عدد من المهمات وأوكدها المهمة الإغاثية والمهمة الحقوقية والمهمة الإعلامية. وما عدا ذلك يمكن ترتيبه ضمن مؤتمر سينعقد بعد ذلك بسنوات ثلاث أي عام 1995. بدأ العمل الإغاثي تحريضا وحثا وحضا وتسولا وتجديدا للعلاقات القديمة للحركة. بدأ

في صورة روابط جهوية ليتسنى إيصال المعونات دون أن يتعرض لها البوليس السياسي التونسي. وعقد المؤتمر الخامس وكان مؤتمرا مضمونيا شبيها جدا بأول مؤتمر مضموني في الحركة أي مؤتمر 1986. هو مؤتمر خلص الحركة مما أشيع حولها من تهم المخلوع بن علي ومن معه أنها حركة إرهابية وذلك من خلال توظيف الحديث حول المجموعة الأمنية لعام 1987 وحادثة باب سويقة التي نشبت في عام 1991 من لدن بعض الشباب والتي كانت السبب المباشر في تجميد العضوية من لدن 3 من قادة الحركة وهم : عبد الفتاح مورو وبن عيسى الدمني والفاضل البلدي. ثم تبعهم في ذلك زهاء عشرة آخرين لم يتضمن بيان 7 مارس 1991 أسماءهم ولكن إضطروا إلى ذلك لفك الحصار عنهم ودفع الإعتقال قدر الإمكان ومن أولئك المحامي نور الدين البحيري والدكتور صدقي لعبيدي وغيرهم. هو مؤتمر ألح كثيرا على ضرورة العمل لأجل إستعادة الحركة لطبيعتها المدنية الأهلية السلمية الديمقراطية لأن ذلك هو الآخر مظهر من مظاهر حرب الإرادات بيننا وبين المخلوع بن علي. فإذا نجح المخلوع بن علي في ذلك فقد فاز علينا بالضربة القاضية التي لا قيام لنا بعدها وإن كانت الأخرى أمكننا أن نلعق بعضا من جراحاتنا الثخينة لنقاوم من جديد. أفرز المؤتمر هياكله المعروفة وكان ضربة البداية للعمل الجاد والمسؤول في المهاجر والمنافي وكان خاصة مناسبة لجمع الصف الداخلي بمثل ما إنه نسق المجهودات الإغاثية والحقوقية والإعلامية التي سبقته. من الطرائف المضحكات المبكيات يومها أن نظام المخلوع بن علي إتهم رسميا ـ أجل. رسميا في بيان حكومي رسمي ـ منظمة العفو الدولية بأنها خلية من خلايا النهضة**!!!** كانت المعركة في المستوى الحقوقي ضارية ضراوة شديدة جدا. لم تكن الشبكة العنكبوتية في تلك الأيام نشيطة ولا حتى متوفرة لكل من هب ودب. مازال الإعلام الورقي هو السائد وحتى الفضائيات لم تكن يؤمها الناس إذ لم يحدث ذلك سوى في أواخر عام 1996 أي عندما ظهرت الجزيرة القطرية.

من تلك المحاولات الورقية الإعلامية ظهرت جريدة تونس الشهيدة عام 1994 والتي عمرت طويلا نسبيا ثم جاءت صوت تونس وكلاهما كان يوزع في المساجد في أوربا وأمريكا وعلى الجاليات العربية. إنغمس الفارون في تسوية أوضاعهم الإدارية لضمان الإعتراف بهم لاجئين سياسيين وقد تم ذلك بسلاسة كبيرة إذ كانت تزكية رئيس الحركة كافية في الأعم الأغلب لحصول صاحبها على اللجوء السياسي بما يمكن له التنقل لأجل ضمان لقمة العيش وإعالة عائلته في الداخل أو لأجل المساهمة في إعادة بناء الحركة داخليا والمساهمة في المعركة الإعلامية والحقوقية والإغاثية وهي معارك ضارية بيننا وبين المخلوع بن علي بأتم معاني الكلمة. بدأت الروائح الكريهة جدا للملف الحقوقي التونسي تفوح وتزكم الأنوف خارج البلاد وذلك من خلال قتل المخلوع بن علي لعدد غير يسير في البداية لمناضلي الحركة منهم سحنون الجوهري والشيخ مبروك الزرن وغيرهما. حاول المخلوع بن علي تبديد تلك الصورة الكريهة التي سرعان ما إلتقطها الإعلام الأروبي فعمد إلى تنظيم زيارة إلى كل من فرنسا ثم ألمانيا فما جنى غير الشوك إذ نظمنا ضده مظاهرات لم يكن العدد المشارك فيها كبيرا ولكن حضرت فيها اللافتات باللغتين الفرنسية والألمانية وكان مما جمعت بنفسي من تقارير صحفية في الصحافة الألمانية التي كانت تسمي المخلوع بن علي في ذلك الوقت الدكتاتور .. كان مما جمعت بنفسي من ذلك ما يجمع في

كتاب متوسط الحجم ومازلت أحتفظ بأكثر تلك التقارير إلى يوم الناس هذا. لك أن تقول بإطمئنان كبير إلى أن المعركة الحقوقية آلت إلى فوز الحركة وحلفائها في الداخل والخارج بضربات النقاط وليس بالضربة القاضية حتى لو أبطأ الإعلان عن ذلك النصر المدوي الذي بدأ عده التنازلي يوم أخذت زوجة الرئيس الفرنسي الأسبق (ميتران) الهاتف من منزلها بباريس في ذات يوم من أيام ربيع 1998 وقالت له بالحرف الواحد : عندما أضع السماعة عليك أن تمكن عائلات الفارين من حركة النهضة كلهم ودون أي إستثناء من جوازات سفرهم. ثم وضعت السماعة ونقلت إلينا العائلات التي إلتحقت بنا من بعد ذلك بأيام قليلة جدا بأن جنود المخلوع بن علي فاجأتهم في ذلك الوقت المتأخر لتقول لهم : جهزوا وثائقكم لتستخرج لكم جوازات سفر. بل أخبرتنا بعض العائلات أن البوليس جاءهم بجوازات سفر جاهزة. كان الخبر صاعقا ولم يصدقه أحد ولم تكن عائلة واحدة ترتاب في أن الأمر مناورة جديدة للتنكيل بهم بل هي وجبة عذاب جديدة. شهادات السجون بدأت في الظهور ولكن لا بأس من القول الآن بأنه فرض على عدد كثير من السجناء وخاصة القيادات منهم إمعانا في كسر الإرادة والذلة والمهانة أن يقلدوا أصوات بعض الحيوانات. فرض عليهم ذلك وهم عراة يزحفون فوق الأرض والسياط تفترس مؤخراتهم دون أي شفقة ولا رحمة.

من ذلك كذلك فرض الطلاق على عدد غير يسير من العائلات إذ تعرضت أزواج إلى التطليق القسري ومن تلك العائلات السيدة سيمرة بن صالح زوجة السيد الهادي التيمومي إذ وصلت حالة التطليق إلى جلساتها الأخيرة ولم يحل دون ذلك سوى هاتف زوجة ميتران آنف الذكر. ومنهن كذلك زوجة السيد عبد الله الهمامي وكلاهما مقيم في مدينة ميونيخ الألمانية. هذه العجالة المرتجلة لا تكفي لسرد ما وقع لسجينات النهضة من مثل زوج السيد عمر الجليطي ورشيدة المطماطي زوج مبارك الجماعي. كل أولئك سجنّ وعذبن وفرض على بعضهن الطلاق ولكن الله سلم.

نسيت أن أذكر أن أول تجربة إعلامية في المهجر هي تجربة المتوسط وهي جريدة كانت تصدر بباريس سنوات 1992 و 1993. وهي تجربة أنجح كثيرا من تونس الشهيدة ومن صوت تونس وبعد ذلك بسنوات جاءت تجربة قصيرة هي تجربة فضائية الزيتونة التي لم تعمر إلا أسابيع قليلات ثم إنداحت الشبكة الإلكترونية فكانت تونس نيوز ثم الحوار.نت ومواقع أخرى كثيرة في ألمانيا وخارجها وكانت فضائية الجزيرة تتابع الوضع التونسي وكان اللقاء التاريخي الأول فيها بين رئيس الحركة وبين الهاشمي الحامدي عام 1999. ولنا عودة إلى الموضوع بحوله سبحانه.

الذي أريد تأكيده هنا هو أن الأثير كان صاحب دور حازم جدا في تحطيم جدار برلين الذي حاول المخلوع بن علي إعادة بنائه حول تونس إذ لا يخامرني أي ريب في أن السم المضاد ـ السم الناقع الذي يحمل الموت الزؤام ـ للدكتاتوريات ليس هو سوى : كلمة. ربما لا يختلف إثنان أن نظام المخلوع بن علي بدأ بالتهاوي بسبب أمرين : أولهما التحرك الحقوقي الذي إنتصرت فيه الحركة بفضل منظمات دولية (وخاصة العفو الدولية التي كانت تخصص فقرات مهمة طويلة ومدققة في تقاريرها السنوية) ومنظمات عربية وإسلامية ومحلية (ولكن المنظمات المحلية التونسية تشكو مما تشكو منه النهضة ذاتها).وثانيهما التحرك الإعلامي الذي لم يبدأ في هز أركان المخلوع بن

علي إلا بعد إنديا‌ح الأثير الإلكتروني ثم السكايب ومختلف أدوت الإتصال التي إقتحمت على الدكتاتور ـ بالتعبير الألماني الإعلامي ـ عرشه ومملكته.

أجل. في العام ذاته الذي شهد زوال جدار برلين (1990) بدأ المخلوع في بناء جدار مماثل حول تونس. إحتاج جدار برلين إلى زهاء ثلاثة عقود ونيف أي من بعد الحرب العالمية الثانية حتى ينقض ولكن جدار المخلوع بن علي لم يحتج سوى إلى عقدين فحسب. ألا تعلمنا مدرسة الحياة أن الجدر الوحيدة الكفيلة بالحماية هي جدر العدالة والحرية؟

إنتصبت المحكمة العسكرية في عام 1992 ليمثل أمامها مئات من قيادات الحركة ومناضليها ممن وقع إعتقالهم على إمتداد العامين السالفين فلم تصدر المحكمة أحكاما بالإعدام ولكن أصدرت أحكاما بالسجن المؤبد وأخرى أقل من ذلك ولكنها ثقيلة. إستطاع المحاكمون أن يحولوا المسرحية محاكمة لنظام المخلوع بن علي إذ ظهرت آثار التعذيب بادية جلية على الأبدان بالرغم من مضي زهاء ثلاث سنوات كاملات على الإعتقال. ظن المخلوع بن علي أن الملف طوي وأن المسجونين ستفترسهم مخالب الموت البطيئ بسبب العزلة الإنفرادية التي فرضها على كثير من قيادات الحركة. ظل يسترق السمع لعله يظفر بأنة أو تأوه أو طلب عفو أو ضعف باد فما ظفر بشيء من ذلك. جن جنونه حتى إهتدى إلى وسيلة خبيثة إستخدمها مع عدد منهم. منهم الشيخ العكروت الذي أخبرنا في حوارنا معه على موقع الحوار.نت أنه أخرج من السجن ذات يوم في الأعوام الأولى وظل الأعوان يتجولون به في بعض أحياء العاصمة ليرى بأم عينيه التطورات المدنية والعمرانية التي حققها بن علي ولسان حالهم يقول : هذه سويسرا التونسية. أنظر بأم عينيك لعلك تفيئ إلى رشدك فتطلب العفو ولو همسا. ولما آذنت الشمس بالغروب عادوا به إلى زنزانته الإنفرادية.

خلا الجو للمخلوع بن علي وظن أنه ألغى سنن التاريخ وقوانين الإجتماع. نظم إنتخابات تشريعية ورئاسية في 20 مارس من عام 1994 ـ وآلة القمع يومها على أشدها تحصد المساجين حصدا وتبث الرعب في الناس بثا عجيبا ـ وكانت الفضيحة المدوية التي ظلت الصحافة الدولية تتناقلها بسخرية. تمثلت الفضيحة في إعلان المخلوع بن علي نفسا رئيسا منتخبا من لدن التونسيين والتونسيات بنسبة 99,99 وأصبح منذ ذلك الوقت يسمى في أجزاء كبيرة من الصحافة الدولية بصاحب التسعات الأربع. الطريف ـ أجل. طريف حقا ـ أنه أخذ بشيء من الإستحياء إذ لما حان موعد الإنتخابات الموالية أعلن فوزه بتسعات ثلاث وفي الإنتخابات التي تلتها أصبحت التسعات ثنتين فحسب. يضحك على ذقن من؟ أهو الغرور الفرعوني أم هو الحمق الذي قال فيه الشاعر : إلا الحماقة أعيت من يداويها.

ضج الناس ـ سيما الشباب العاطل من المتخرجين وغيرهم سواء بسواء ـ من الحالة المزرية التي وصلت إليها البلاد : أفواه مكممة بالتمام والكمال وأقلام مغمودة لا يسمح لها إلا بالتصفيق والتمجيد والتحميد وبطالة مستفحلة وإعلام مقزز مقرف يذكرك بصحيفة البرافدا السوفياتية كما كانت تكيل المديح إلى الحكام الجدد للثورة البلشفية أو بالإعلام " اليعيشي " نسبة إلى رؤوف يعيش الذي كان يطل علينا في العقد الثمانيني مع الثامنة مساء ليصور لنا المجاهد الأكبر بورقيبة

سابحا في مسبحه الخاص وعلالة العويتي ومن معه من إماء القصر وجواريه يرقبونه حتى إذا مل من السباحة أخذوه وجففوا بدنه وألبسوه ثيابه. وفي الجانب الآخر ترفل ليلى بن علي ومن معها في حلل الزينة والذهب والفضة بالإستيلاء على ما شاءت من الأموال. ضج الناس من ذلك الوضع المهين فإختاروا قوارب الموت التي تقلهم إلى الحوض الشمالي للمتوسط وهم يعرفون بالتجربة اليومية أن ذلك يكلفهم أموالا طائلة عند الإنطلاق ووقوعا في بطون القروش الإيطالية عند الوشك على الوصول. وظلت قوارب الموت تقل إلى الموت مع مطلع كل فجر عددا من الشباب من الذكران والإناث حتى إشتهرت بهم لامبادوزا الإيطالية المعروفة ومازال أهلهم إلى يوم الناس هذا لا يعرفون مصائر كثير منهم.

تلك صورة من ميزان المخلوع بن علي : إستبداد سياسي قتل السياسة بمثل ما قال بصدق وحق وعدل السياسي الوحدوي إبراهيم حيدر عام 1991 وتجفيف لمنابع التدين وتكديس للمال في أيدي الطرابلسية فحسب وإطلاق لأيدي قوات القمع لينشروا الذعر وولغ في الإتجار الدولي بالمخدرات إذ قبضت فرنسا في تلك الأعوام الأولى على شقيقه المنصف بن علي في مطارها بباريس وهو محمل بكميات ضخمة من المخدرات فلما كشف أمره إتصل بالسفارة التونسية التي مكنته بدورها وبأمر من شقيقه المخلوع من جواز سفر دبلوماسي ولما رجع الشقي إلى تونس ما لبث إلا قليلا حتى نعي ولا شك أن الشقي قتله شقيقه ليحول دون فضيحة أخرى تحيق بالقصر فلا تبقي ولا تذر. ناكية النواكي في ذلك الميزان الأسود للمخلوع بن علي أن الرجل ماض في التطبيع مع الكيان الصهيوني مضيا عجيبا إذ مكن الصهاينة من مكتب تجاري ومعلوم أمر المكاتب التجارية في البلدان التي لا تعتمد تمثيليات دبلوماسية لبعض الأطراف الدولية. أمرها هو أمر التخابر الأمني.

في عام 1998 حاول المخلوع بن علي شق الصف الداخلي للحركة في المنافي والمهاجر وذلك لما أعيته حيلة حرب الإرادات إذ ظل المساجين صابرين محتسبين وبمثل ذلك ظل المنفيون والمشردون. لما شعر أن ملفه الحقوقي أصبح يزكم الأنوف في الخارج سيما أن مشروعيته لم تبن سوى على شعار الحريات والديمقراطية وإلغاء الرئاسة مدى الحياة .. لما شعر بذلك حاول شق الصف الداخلي للحركة فدعا إليه الهاشمي الحامدي ـ صاحب قناة المستقلة والقيادي المعروف في الحركة حتى عام 1992 حيث نال شهادة الدكتوراة من جامعة بريطانية حول موضوع " تسييس الإسلام : حركة النهضة نموذجا " ـ وإتفقا على إستمالة ما يمكن من العناصر القيادية من النهضة في الخارج لأجل إجراء مصالحة فردية ينال فيها المتصالح جواز سفره ويستعيد حقه في العودة إلى بلده والخروج منها آمنا إن شاء. عاد الحامدي إلى بريطانيا وكتب بالعنوان الأحمر الكبير في أول صفحة فوق جريدته " المستقلة " أن ليلى بن علي تعلم أبناءها القرآن الكريم والصلاة وغير ذلك. بدأ إتصالاته فلم يظفر بشيء. إتصلت أنا بنفسي منه برسالة إلكترونية تدعوني إلى ذلك. كنا زميلين في أعوام 1985 و 1986 و 1987 في مجلس العمال بالحركة. حاول من بعد ذلك جمع ثلة من أبناء الحركة حوله ولكن التجربة ماتت في مهدها وذلك لسبب كبير خلاصته أن الوقت إذ ذاك مازال مبكرا على مثل هذه المبادرة. أقول ذلك لأنه سيأتي

زمان على الحركة في محنتها ستكون فيها الأوضاع مهيئة لمثل تلك المبادرة ـ هي مبادرة لشق صف الحركة دون ريب في ذلك عندي إذ لا معنى لمصالحة فردية تضيع فيها حقوق البلاد ـ. ستكون تلك المبادرة في أواخر زمن ما قبل الثورة.

أما في الملف الإغاثي فقد بادر عدد من أبناء الحركة إلى تأسيس جمعية إغاثية ألمانية غير ربحية وذات نفع عام وذلك في أواخر عام 1999 وهي جمعية مرحمة الشهيرة. عملت الجمعية على تنسيق أعمال الروابط التي كانت تتولى تلك المهمة وربطت علاقات إغاثية كبيرة وكثيرة وإستغلت علاقات الحركة في المشرق وفي المغرب وزودها الإمام القرضاوي بشهادة مكتوبة بخط يده. أدت خدمات كبيرة على مستوى تنظيم العملية الإغاثية ولكنها لم تستطع تلبية أكثر من ربع الحاجة المادية في تونس أو ربما إقترب ذلك من الثلث قليلا وذلك لحجم الفاقة وصلف الجريمة التي أقترفها المخلوع بن علي في حق الأبرياء من زوجات المعتقلين وأبنائهم ومثلهم المنفيون والمهجرون والمنفيون في وطنهم إذ مارس ضدهم سياسة تجويع آثمة وفاحشة بمثل ما مارس ضد السجناء سياسة الموت البطيء. هي سياسة الموت في البلاد بأسرها. وكيف لا تموت السياسة وقد شن المخلوع بن علي حربا ضروسا ضد كل نفس حر يستوي أن يكون نهضويا إسلاميا أو شيوعيا أو ماركسيا أو ليبراليا أو إشتراكيا أو قوميا أو حتى مفكرا حرا أو نقابيا أو حقوقيا أو صحافيا إعلاميا. هي دبابة عمياء تدهس الذي أمامها بلا شفقة ولا رحمة. قال بورقيبة بعظمة لسانه يوم كان في عبة حكمه وغرورة : أنا وليكن من بعدي الطوفان. لم يقل المخلوع بن علي ذلك بعظمة لسانه لأنه أقمأ من أن يكون جملة مفيدة ولكنه نفذ ذلك بدبابته العمياء.

قرأنا منذ عقود في برنامجنا الخلوي المشار إليه آنفا ـ ضمن المادة التكوينية في الصدد السياسي الحركي ـ تحليلا للحقوقية التونسية اليسارية المعروفة سهير بلحسين تقول فيه أن تونس ستظل محكومة حتى عقود طويلة بالعلاقة بين قوى ثلاث هي : الإسلاميون وإتحاد الشغل والسلطة. قالت المحللة اليسارية : لا بد لمن يحكم تونس أن يضمن تحالفه مع واحد من تلك القوى الثلاث. فلا بد للسلطة من تحالف مع إتحاد الشغل لتقصي الإسلاميين ولا بد لهؤلاء من تحالف مع إتحاد الشغل لإقصاء السلطة. هو تحليل صحيح جدا. هو تحليل عمل به المخلوع بن علي ولذلك عمد منذ البداية إلى إقصاء إتحاد الشغل وتنصيب رجل من رجاله عليه وهو السحباني الذي غضب عليه من بعد ذلك وأدوعه السجن. كما فعل الأمر ذاته مع الرابطة التونسية لحقوق الإنسان سيما بعدما تزعمها الدكتور المنصف المرزوقي من عام 1992 وظل مؤتمرها مجمدا حتى عام 2002 نكاية فيها وفي رئيسها الأسبق المرزوقي.

لم تكن خطة المخلوع بن علي لتجفيف المنابع فحسب بل كانت خطة لتجفيف العمل السياسي بالجملة والتفصيل والعمل الحقوقي والإعلامي. الأمر مفهوم جدا إذ لا مجال لصاحب مشروع أن ينفذ مشروعه إلا بإزالة العقبات. تلك هي القاعدة التي إلتزمها بورقيبة من قبلة إذ لم يكن له مجال لتنفيذ مشروعه الحضاري الجامع إلا بإزالة الزيتونة والكتاتيب والأحباس والأوقاف والقضاء الشرعي. واليوم ليس بإمكان المخلوع بن علي تنفيذ خطته إلا بتجميد العقبات وهي تحديدا : حركة النهضة والإسلام من ورائها وبقية الأحزاب والمنظمات الحقوقية والإعلام الحر المقاوم

وإتحاد الشغل وتفكيك بنيات المجتمع المدني.

دعنا نعود إلى المنافي لنرصد إجتماعا دوليا في مدينة جوهانسبورغ الجنوب إفريقية شهورا قليلة قبل إندلاع كارثة 11 سبتمبر 2001. كان ذلك الإجتماع الدولي يحمل رسالة عنوانها : إعتبار الصهيونية حركة عنصرية. قاطعته أمريكا ـ وإسرائيل بالطبع ـ ثم جاءت أمريكا تجر أذيال الخيبة أملا في ممارسة ضغوط ضد المشاركين الفاعلين للتصويت ضد هذا الخيار. ثم قاطعته ثانية وخرج ممثلها وذلك عندما أدرك أن الوقت فات. كان نصرا حقيقيا لقوى المقاومة في الأرض كلها. لكن التاريخ لم ينته إذ جاءت الكارثة المشار إليها أعلاه بعد ذلك بشهور قليلات جدا. جاء الثأر الصهيوأمريكي سريع الرد. ولكنه ذكي الرد كذلك. جاء ليورط تنظيم القاعدة بزعامة المرحوم بن لادن ـ أترحم عليه من سويداء قلبي ولكني أعارضه في منهاجه التغييري معارضة كلية لا إلتقاء فيها ـ في ضرب المركب التجاري في نيويورك. أنا دوما عند هذه القناعة ومفادها أن إبن لادن ومن ورائه تنظيمه وقع فيما تقع فيه الطريدة عندما يوضع لها طعم تشتهيه فلما تهم بإلتقاطه تقع في الفخ المنصوب. الشاهد البريء الذي لا يرى سوى ظاهر العملية يقول في نفسه ـ وهو صادق مع نفسه ـ أن الطريدة هي التي هجمت على الصياد فلما دخلت عليه عقر داره قبض عليها ولكن العالم ببواطن الأمور ممن له علم بخفايا العملية يعلم علم اليقين ـ ولكنه علم ليس له عليه دليل إذ عادة ما تغيب الأدلة المادية الدامغة في مثل هذه الحوادث الإستخباراتيه المعقدة جدا ـ أن الصياد هو الذي إستهوى الطريدة إلى عقر داره بطعم تشتهيه. لم يكن يسيرا على أمريكا أن تحتل العراق وأفغانستان وتعلن الحرب الضارية المفتوحة على العالم الإسلامي بأسره حتى لو كانت هي القائد الأعلى للعالم من بعد سقوط الدب الروسي. لم يكن ذلك يسيرا لأن الجهاز الحقوقي والإعلامي في الأرض ليس صغيرا وبإمكانه شن حملات في إثر حملات تجعل أمريكا في موقف ضعف وهشاشة. ولذلك كان لا بد من توفير مبررات ومسوغات تحمل أمريكا إلى تنفيذ قيادتها للعالم تنفيذا عسكريا وإقتصاديا وسياسيا حقيقيا وليس مجرد دعوى. ولم يكن ذلك مناسبا سوى بإختلاق قصة القاعدة التي تهجم عليها في عقر دارها والقاعدة تنتمي إلى العالم الإسلامي والعالم الإسلامي يموج فوق محيطات هادرة من الذهب الأسود أي البترول بل على محيطات أخرى من الذهب الأحمر نفسه أي الذهب الحقيقي. لا بد إذن من الهجوم على العراق الذي إستخدم بالأمس القريب سلاحا ضد إيران. ليكن التوسع لنفترس الدنيا إفتراسا وليكن تنظيم القاعدة هو قارب ذلك التوسع. مادام تنظيم القاعدة نفسه لا يمانع من ذلك ويصرح بتبنيه لما يسميه غزوة مانهاتن. تلك هي السياسة في دهائها وخبثها ومكرها عندما يشتبك في طرفها هذا سفاك آثم عربيد يريد إنتزاع بطولة قومية يثأر بها من التاريخ البعيد وفي طرفها ذاك أغرار يظنون أن الله ينصر المؤمن لإيمانه فحسب في الدنيا.

في سورة الحمأة المجنونة المغرورة من لدن الآلة الأمريكية التي خلا لها الجو الدولي .. في سورة تلك الحمأة الهابطة كان لا بد من تجهيز أدبيات تحتضن ذلك التفوق الأمريكي. تماما بمثل ما حفلت الساحة الفنية بمفردات معروفة في السنما وهوليود ومختلف الفنون لتمارس الإرهاب الفكري والفني. بمثل ذلك تماما ظهرت دراسات تضفي على نفسها الصبغة الأكاديمية. منها كتاب

شهير لفوكوياما بعنوان " نهاية التاريخ ". العنوان خطير جدا فهو يعلن أن تاريخ التطور البشري بلغ سقفه الأعلى بالتفرد الأمريكي ولا مجال لتفوق آخر يعلوه. نهاية التاريخ لا تعني سوى فرض الإلهية الأمريكية بالإرهاب الفكري والإستعباد الثقافي. وفي ذلك الإطار ذاته صدر مؤلف شهير تحت عنوان " صراع الحضارات ".

قبل ذلك بقليل إنعقد مؤتمر الحركة لعام 2001 وما إن إنفض المؤتمر حتى جدت كارثة نيويورك فعمت البهتة الناس في شرق الأرض وغربها وخاصة المسلمين. الدبابة العمياء التي رأيناها تدك تونس على يد المخلوع بن علي تحولت إلى الأرض كلها تدك ما يمت إلى الإسلام بأي صلة ولكن على يد جورج بوش الإبن. بدأ كسب عقود طويلة من العمل الإسلامي في أروبا وأمريكا والغرب بصفة عامة يتهاوى تحت مطارق أمريكا. عم الخوف والذعر والهلع وأصبح الإسلام في الأرض كلها تقريبا لا يعني سوى التطرف والإرهاب والعدوان. أخبرتني إمرأة ألمانية متزوجة من شاب مغربي وقالت لي أن شقيق زوجها ـ وهو شاب أعرفه معرفة شبه تامة ـ صرح للسطات الألمانية بأنه فار من المغرب بسبب ملاحقته الأمنية لأنه من الشواذ جنسيا وهو سبب كاف جدا وزيادة لأن يمنح الرجل حق اللجوء السياسي بل هم يبحثون عن مثل هؤلاء لتظل الآلة الإعلامية في حرب متواصلة مع الإرث الثقافي الإسلامي حتى بالكذب والبهتان. صدمني الخبر لأول وهلة ثم أدركت أن الهزيمة القيمية شنعاء نكراء ضراء مضرة.

من الأعمال التي قام بها المهجرون في أروبا تأسيس الهيئة العالمية للدفاع عن الإسلام في تونس وهي هيئة ضمت إليها عددا من الدعاة وبادرت بإصدار عدد من البيانات المتعلقة برصد الحالة الإسلامية في البلاد بما ترتب عن التنفيذ الأعمى لخطة تجفيف المنابع.

ومن تلك الأعمال كذلك تأسيس عدد غير يسير من المدارس التي يؤمها تلاميذ المرحلتين الإعدادية والثانوية من أبناء الجالية العربية إما لتعلم اللغة العربية الأم أو لتقديم دروس تقوية في بعض المواد أو لتيسير تعليم مواز شبيه بالمدارس الخاصة. بدأ التجربة ـ على ما أظن ـ الحبيب المكني ثم تلاه ضو مسكين ثم عبد الرؤوف النجار ثم الحسين الجزيري وآخرون لا أستحضر أسماءهم وهي في الجملة تجربة رائدة وناجحة وساهمت مساهمات كبيرة معتبرة في حفظ الوجود القيمي والديني للجالية العربية وأبنائها وبناتها في مجتمع عادة ما يكون فيه الصراع على أشده بين هويتين : هوية بلد الضيافة وهوية البلد الأم وما ينجر عن ذلك من تحديات لا يعرفها إلا من يكابدها.

كما ساهم آخرون في بعث منابر فكرية متخصصة تساهم في التنوير الفكري المطلوب إما لإحياء الإجتهاد الثقافي أو لإكتساب المناعة الذاتية القيمية المطلوبة ومن تلك المنابر مجلة الإنسان التي أسسها الحبيب المكني بالتعاون مع رضا إدريس منذ سنوات طويلات. كما ساهم المهجرون من أبناء النهضة في الكتابة والتأليف في عدد من المنابر منها على سبيل الذكر لا الحصر مجلة الجرأة لصاحبها سليم بقة وهي باللغتين العربية والفرنسية وقد تعرض صاحبها لمضايقات من لدن البوليس التونسي في باريس وهي منبر خدم القضية التونسية في سنوات الجمر الحالكة

الطويلة خدمة كبيرة.

ومن الإنجازات التي ساهم فيها النهضويون في المنافي مساهمة معتبرة جدا تأسيس المنظمة الدولية للمهجرين التونسيين التي إنعقد مؤتمرها التأسيسي الأول عام 2008 في جنيف السويسرية.

وتواصل التنسيق السياسي بين مختلف الشركاء الوطنيين في المنافي وخاصة في باريس. تواصل ذلك مع أحمد المناعي ومع المرحوم مزالي ومع أحمد بن صالح ومع المنصف المرزوقي وغيرهم من المعارضين السياسيين لنظام المخلوع.

وكانت للنهضويين مساهمات دعوية إذ شارك عدد غير يسير منهم في تأسيس التجمع الأروبي للأئمة والمرشدين الذي عقد مؤتمره الأول في بروكسل عام 2008 وشارك عدد منهم في تأسيس الإتحاد العام لعلماء المسلمين بزعامة الإمام القرضاوي في دبلن الإيرلندية وشارك عدد منهم في تأسيس المجلس الأروبي للإفتاء والبحوث ليكون مرجعية فقهية لمسلمي أروبا وشارك كثير منهم في تسيير مختلف الدواليب والأجهزة بإتحاد المنظمات الإسلامية مركزيا وجهويا فضلا عن تأسيس عدد كبير من الجمعيات الثقافية التي تحتضن أعمالهم بمختلف الأقطار الأوربية والغربية بصفة عامة وتأسيس عدد كبير آخر من الجمعيات الحقوقية والإغاثية والمبادرات الإعلامية وغير ذلك مما لا يمكن أن يحيط به المرء في سطور.

كما تواصل النضال الحقوقي في الداخل إذ أسست مجموعة من المناضلين الحقوقيين المجلس الوطني للحريات ثم تأسست جمعيات حقوقية أخرى منها حرية وإنصاف وغيرها مما لا يذكر هنا سوى على سبيل الذكر وليس الحصر ولا على سبيل الإشادة بهذه وإهمال الأخرى.

بدأ أداء الحركة في التراجع من بعد تلك الكارثة وبدأ المخلوع بن علي في مقابل ذلك ينتعش ولكنها إنتعاشة الديك المذبوح إذ أن الزمان إستدار هيئة أخرى والزمان هو الشيء الوحيد الذي لا يرجع القهقرى أبدا. يتقدم دوما ولا يلوذ بالفرار. ومعلوم أن أول فوج كبير مسرح من سجون المخلوع بن علي كان في عام 1999 وكان عدد المسرحين زهاء 600 سجين ولكن ليس من بينهم قيادات من الصف الأول على ما أذكر.

سبب آخر جعل أداء الحركة يتراجع نسبيا وهو شعور عدد من أنباء الحركة في المنافي والمهاجر بطول المحنة وقساوتها وأن الأمر إستتب للمخلوع بن علي داخل البلاد ولا أمل في الأفق. هذه دبابة عمياء في تونس وهذا الدب الروسي خلع مظلته العالمثالثية منذ 1989 وهذه أمريكا تتفرد بالزعامة والغطرسة والصلف. الصبر مقاومة دون ريب ولكن للصبر حدود. الحنين إلى الوطن والأهل وأديم الذكريات غريزة لا تقاوم. تقدمنا خطوات في الملف الحقوقي ومثلها في الملف الإغاثي ومثلها في الملف الإعلامي ولكن الكلمة الطولى اليوم هي للقوة ولا شيء لغير القوة. تلك مسكنات لا تسمن ولا تغني من جوع. ذلك حديث النفس.

بدء من عام 2002 سيظل خروج بعض القيادات تباعا من السجن وتظل معهم بعض الإتصالات

من الخارج ممكنة ولكن بحذر من جانبهم بسبب ما سيظلون يتعرضون له من تعقبات وملاحقات ومساءلات ومحاصرات إذ أنهم يخضعون دون إذن قضائي للإقامة الجبرية المغلظة.

وفي عام 2005 يبدأ العد التنازلي لنظام المخلوع بن علي بجد إذ ينتظم في تونس أول مؤتمر للإعلامية ويهتبل بعض السياسيين والحقوقيين والإعلاميين من كل الطوائف الحزبية والألوان الفكرية تقريبا ذلك الحدث ليشنوا إضرابا عن الطعام لينقلب مؤتمر الإعلامية الذي أراده المخلوع بن علي تجديدا لترسانته الحقوقية بإعتباره رائد حقوق الإنسان في الوطن العربي .. ينقلب ذلك المؤتمر عليه وتكون القضية بصوت عال في البلاد وخارجها هي : ما هو نصيب الحريات والحقوق والكرامة والعدالة في تونس. ومع إنديا‌ح الأثير الإلكتروني والفضائي إنكسر جدار برلين الذي شيده المخلوع بن علي عبثا وحدثت فيه شروخ خطيرة جدا. ولذلك بدأ في تسريع الإفراج عن المساجين بمن فيهم القيادات العليا للحركة الذين بادروا بتنظيم صفوفهم الداخلية قدر الإمكان والقيام بتقويم سريع بما تسمح به الظروف الأمنية وتعرض اليد البوليسية للمخلوع لأول مرة إلى التأخر ـ ليس عفوا عند المقدرة وهي فضيلة عربية ـ ولكن عجزا وخوفا من اليد الحقوقية الطولى في العالم إذ ظهر من بعد ذلك وخاصة بعد ذهاب جورج بوش الإبن ـ صاحب الدبابة العمياء في العراق وأفغانستان وغيرهما ـ أن سواد الملف الحقوقي مؤذن بإنهيار النظام مهما تكن بطشته. وبذلك إلتأم الصف الوطني لأول مرة بعد زهاء عقد ونصف أي بين الإسلاميين وبين العالمانيين واليساريين وهي نقطة قوة كبرى جدا في الملف الحقوقي الوطني ولم يعد يمكن للمخلوع بن علي أن يستفرد بالنهضة كما فعل من قبل للإمعان في خنقها.

وفي تلك الأثناء كذلك حاول المخلوع بن علي محاولة جديدة لشق الصف الداخلي للحركة وذلك بعدما فشل عن طريق الهاشمي الحامدي. برز إلى السطح لزهر عبعاب ـ قيادي سابق في الحركة ـ وهو يتصل بالمهجرين ـ برفقة رجلين كانا في المقدمة معه ـ. يسوق الخطاب نفسه تقريبا أي إمكانية تسوية الملف الشخصي للمتابع أمنيا وذلك عن طريق تسجيل إسمه في قائمة ضمت أكثر من مائة مهجر ثم التوجه إلى السفارة التونسية لتسلم جواز سفره. لا أشك في أن أكثر الموقعين معه ما أرادوا سوى تسوية أوضاعهم الإدارية لتيسير عودتهم إلى البلاد إذ يكون هذا في حاجة إلى عيادة والد على فراش الموت ويكون ذاك في حاجة إلى أرب عائلي مثل ذلك. ثم كان مصير تلك المبادرة مصير أختها من قبلها.

ولا بد من كلمة بمناسبة الحديث عن الهامشي الحامدي ولزهر عبعاب. دعنا نأخذ بالتي هي أحسن حتى النهاية أي تقديم فرضية قوامها أن كلاهما هاله ما " تردت " فيه الحركة من تهجير ونفي وسجن وعذابات وغير ذلك مما هو معروف فبادر بربط علاقة مع المخلوع بن علي لفك ذلك الحصار أو فك ما أمكن منه. الدليل على العلاقة هو ما صدر في بيان كل منهما وهي وثائق مازالت محفوظة في الشبكة العنكبوتية وغيرها. إذ لا يمكن للمرء أن يصدق أن تلك المبادرة ـ الأولى والأخيرة ـ لا علاقة لها بالمخلوع بن علي لا من قريب ولا من بعيد. لا بد من قراءة سياسية في المبادرة تجعل المرء يطمئن إلى أنه مازال يفكر تفكيرا سياسيا. أما ما في الصدور فلا يعلمه سوى من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور سبحانه. لا حاجة للمرء الذي يحترم نفسه

أو يدفع بالتي هي أحسن إلى أن ينعت الرجلين بنعوت لا تليق. ولا يليق بمن يتعرض إلى قراءة في تجربة الحركة أن يهيل على ذلك التراب لأي داع من الدواعي كلما لجم المرء لسانه عن كلمة السوء. ها نحن نتعرض إلى الفتنة الكبرى في عهد الصحابة المبشرين بالجنة. نتعرض إلى ذلك قراءة في التاريخ وإفادة من تجاربه. إذا وهبنا أن الرجلين ـ ومن معهما ـ كانا مجتهدين يتحريان المصلحة والنصيحة ـ وهو أمر لا أؤكده بمثل ما لا أنفيه ـ فإنه لم يكن لائقا البتة أن يكون ذلك خارج الإطار الرسمي لقيادة الحركة وذلك بسبب أن الخصومة هي بين الحركة وبين المخلوع بن علي وليست بيني أنا مثلا وبين المخلوع بن علي. إذا منح كل واحد منه نفسه التصرف ـ تصرفا عمليا وليس قوليا ـ في قضايا كبيرة وخطيرة تهم مجموعة كبيرة دون إذنها ـ كائنا ما كانت الخصومة المفترضة مع تلك المجموعة التي رضيت بمؤسسات وقيادة ونظام محدد ـ فإنه لم يعد أي معنى للتآخي والتكافل والتحابب بين المسلمين أو بين أبناء الوطن الواحد وليس الحديث هنا عن المنتظمين تحت لواء حركة أو حزب أو جماعة. هذه المسألة تهم بلادا وحركة وليست مسألة صغيرة تهم عشرة أو عشرين أو مائة أو مائتين أو حتى ألفا أو ألفين. هب أن الرجلين ينتميان إلى كيان وطني غير إسلامي هل يحق لهما أن يتصرفا في قضية وطنية بمثل ذلك؟ أما ناكية النواكي فهي ـ من بعد ما ذكر آنفا ـ أن الطرف الآخر الذي لن تصب المبادرة في حال نجاحها إلا في حسابه هو بالضرورة ليس هو سوى المخلوع بن علي. هل كان المخلوع بن علي خصيم الحركة الإسلامية فحسب؟ طبعا لا. كان المخلوع بن علي خصيم الأطياف كلها والألوان جميعها. كيف تتزامن تلك المبادرات ـ التي تعد أكبر خطيئتها بالنتيجة الضرورية هي مساعدة المخلوع بن علي على شق صف الحركة ـ مع إلتئام الصف الوطني بمناسبة مؤتمر الإعلامية عام 2005؟

لك أن تقلب المبادرتين على كل الوجوه الممكنة مع إلتزامك تقديم الظن الحسن في أصحابها. ستلفى قطعا أن المآلات فاسدة وضارة. ذلك العامل وحده يجعل من التعرض لها في هذه الورقات عملا لا بد من تسجيله. يسجل ذلك في إطار معروف عنوانه : أن كسب الحركة لم يكن دوما إيجابيا ناصعا بل تخللته بؤر سوداء قاتمة. أليس هو عمل بشري؟ لم التعلق بأهداب المثالثة ولا مثالية؟

جرى آخر مؤتمر في المهجر أي المؤتمر الثامن في عام 2007 ولكنه كان مؤتمرا كل شيء فيه يقول : نحن في محطة أخيرة من محطات مرحلة تؤذن بالإنصراف. مؤتمر إستبشر كثيرا بمبادرة الإخوة المساجين المسرحين من الصف القيادي الأول توليهم إحياء الحركة وهو تحقق لأكبر أهداف مؤتمر 1995 أي العمل على إعادة الصحوة والحركة إلى البلاد. عادت الصحوة بدء من عام 2000 وعادت القيادة من عام 2007. كان ذلك هو الشعور. ولكن لم يكن هناك شعور داخلي وقاد بأن التونسيين سيثورون ضد المخلوع بن علي بمثل ما فعلوا. هناك شعور بأننا في أعقاب مرحلة وحسب. كاذب من يقول لك أنه كان يرقب ثورة. إلا أن يكون ذلك في المطلق بسبب عدم فقدان الأمل أو أن القراءة السياسية الحصيفة تنبئك بحرارة بأن العد التنازلي الذي أحدثه مؤتمر الإعلامية عام 2005 كان حقيقة ساطعة. أجل. بدأ العد التنازلي ولكن يمكن لذلك العد أن يظل بمثل ما ظلت المرحلة المظلمة من قبله. أي مرحلة السنوات الجمرية الكأداء العجفاء

الطويلة المضنية.

معطى محلي آخر جديد سينشأ في أعقاب هذه المرحلة الجديدة (مرحلة المقاومة من 1989 حتى 2011) في تونس نشأة تختلف معاييرها. فهي بالمعيار القصير نشأة في غير تربة ولكنها بالمعيار الصحيح نشأة لازمة وحتمية. ذلك المعطى الذي سيكون له أثره الكبير من بعد ذلك هو نشوء ثاني صحوة دينية في تونس ـ والحقيقة أن الصحوة الدينية لم تتوقف في الأمة إذ تظهر هنا وتخبو هناك ـ. أول صحوة إسلامية دينية في تونس هي حركة النهضة عام 1969 وثاني صحوة دينية إسلامية تونسية هي هذه الصحوة التي وصمت بالسلفية تماما بمثل كانت الحركة نفسها توصم على عهد الصياح الطامح يومها إلى خلافة بورقيبة. فاجأتنا ـ والحق يقال بتواضع جم ـ تلك الصحوة الدينية في تونس إذ لم يكن منتظرا ـ بالمعيار القصير ـ نشوء صحوة تتحدى أعتى خطة وأشرسها أي خطة تجفيف المنابع. ذلك أمر أحالنا إلى التاريخ لمزيد من دراسته دراسة واعية.

المناخات الدولية المحيطة.

سبقت الإشارة إلى كل تلك المناخات أو جلها على الأقل. ولكن لا مانع من معالجة بعض الأمور التي لم تكن معالجتها آنفا منبسطة. بدأت المرحلة قبل الأخيرة (مرحلة المقاومة الحقيقية من لدن الأطراف الثلاثة في الحركة أي المساجين والمنفيين في وطنهم والمهجرين أو قل معركة الإرادات في تلك الحقول الثلاثة).. عام 1989 وذلك بإنهيار الإتحاد السوفييتي ثم جدت حرب الخليج الثانية (كانت حرب الخليج الأولى هي الحرب التي شنتها أمريكا ضد إيران وكان صدام عليه رحمة الله هو عصا أمريكا يقاتل بالوكالة ولا أترحم عليه سوى لأنه كفر عن سيئته تلك ومات واقفا صامدا في وجه الأمريكان والصهاينة). حرب الخليج الثانية هي الحرب التي تلت غزو صدام للكويت عام 1991. هي مرحلة جديدة في الكون والأرض. مرحلة تناسب المرحلة الجديدة في تونس. هنا حصل في الحركة سوء تفاهم غير قصدي في مؤسسات الحركة ولأول مرة بشكل مغلظ ولكن المحنة الضارية يومها كانت تخفي ذلك بسبب أن الناس منشغلون بتأمين أنفسهم وهياكلهم. الحدث هو تخاصم الموقف الرسمي من حرب الخليج إذ إتخذ علي لعريض الناطق الرسمي بالنيابة موقفا أدنى إلى الرشد بينما إتخذ رئيس الحركة موقفا لم يكن موفقا يومها سيما في تبعاته مع دولة الكويت ولكن جبر الزمان كل ذلك بحمده وفضله سبحانه. ولكن المؤلم في الموقف هو أن المخلوع بن علي إتخذ موقفا ظاهره الرشد وبذلك لم يتعرض للمظاهرات العارمة التي نظمها التونسيون ضد الغزو الأمريكي للعراق. سياسيا كان ذلك كفيلا بالإيغال في التنكيل بالحركة ولكن التنكيل بالحركة كان قانونا ماضيا تجندت له الدولة كلها وبكل مؤسساتها بل وأخضعت أحزاب عالمانية ويسارية للسير فوق ذلك الدرب.

ربما سبقت الإشارة كذلك إلى التداعيات الطبيعية جدا لإنهيار الدب الروسي وتفرد أمريكا بالقيادة القطبية الأحادية ومن تلك التداعيات ما طرأ على المقاومة الفلسطينية من خنوع رهيب وكبير أي بدء من مؤتمر مدريد 1991 ثم لقاء أوسلو 1993 ثم وادي عربة 1994 ثم غزو البلقان

1995 ويمضي القطار الأمريكي بغطاء الناتو ليتوسع شرقا ويبتلع الجمهوريات الإسلامية المستقلة لتوها من قبضة الدب الروسي وقد تبين آنفا كيف أن أمريكا ثأرت لمؤتمر جوهانسبورغ وذلك بإفتعال كارثة نيويورك عام 2001.

تلك كارثة فجرت ما إصطلح على تسميته هنا بالإسلاموفوبيا أي التخويف من الإسلام. الإسلاموفوبيا حركة عنصرية نشيطة لك أن تقول هي أثر من آثار التفرد الأمريكي بالقيادة العالمية ولا شك في أن أطرافا أخرى تغذيها من مثل الصهيونية والصليبية والخيارات المعادية إما للإسلام من حيث أنه دين أو المعادية للمشروع الإسلامي أو الفكرة الإسلامية من حيث أنها إلتزام من لدن معتنقي الإسلام بالإسلام.

هي نزعة متأصلة في تلك الدوائر ولكن عندما تبحث تلك الدوائر عن مسوغات لتفجير تلك النزعة العنصرية فتلفاها جاهزة فإنها لا تتردد في تذكية نزعاتها المتطرفة إلى أبعد الحدود الممكنة.

أما الحدث الإقليمي الأكبر فهو فوز الفيس الجزائرية بالإنتخابات البلدية بنسبة كبيرة جدا مما حدا بالدبابات الفرنسية إلى سحق التجربة والدوس على صناديق الإقتراع وإلغاء التجربة الديمقراطية الوليدة الناشئة ولا مشروعية لديمقراطية تحمل الإسلاميين أو غيرهم من أصحاب المعارضة للخيار الأمريكي في المنطقة وخاصة بعد إنهيار الغطاء العالمثالثي. كان رصد الأحداث الجزائرية من تونس مهما جدا إذ يرقب المخلوع بن علي ومن معه فشل التجربة وسحقها ليكون ذلك له تأشيرة دولية للنسج على منواله ضد النهضة في تونس ويرقب الشعب ذلك كذلك لتعديل بوصلته مع النظام أي نظام المخلوع. فلما آلت الأوضاع هناك إلى ما آلت إليه فر كل واحد إلى مآله بالضرورة. ثم دخلت الجزائر في ما يشبه الحرب الأهلية المدمرة وكان درسا قاسيا جدا للتونسيين وإستغل المخلوع بن علي ذلك. الرسالة هي : البديل الإسلامي المزعوم ـ لافرق بين معتدليه ومتطرفيه ـ هو بديل خاسر لأنه لا يجر إلا إلى الحرب الأهلية المدمرة والجزائر خير شاهد. لذلك لا بد من القطع مع المعارضة وخاصة الإسلامية منها. أنا هو ضامن الإستقرار وأنا هو أبو المعجزة الإقتصادية وأنا هو مكتشف المصل الحاقن الشافي والواقي ضد الداء الإسلامي وخاصة السياسي منه. تلك مرحلة جديدة وذلك هو خطابها ولا صوت يعلو فوق صوت القوة. اليوم هو يوم السيف ومن كان عنده عقل فليغرب عنا بعيدا.

حدثان آخران مهمان كبيران لا بد من عدم الغفلة عنهما. أولهما هو فوز حزب العدالة والتنمية التركي عام 2002 بزعامة أردوغان في إنتخابات ديمقراطية. كان ذلك الفوز نصرا مبينا مؤزرا معززا للبديل الإسلامي في المنطقة الإسلامية. الحزب هو وريث تجربة حزب الرفاه لصاحبه المهندس المرحوم نجم الدين أربكان الذي بدأ تجربته الإنتخابية بالفوز في أول إنتخابات بزهاء إثنين بالمائة فحسب من أصوات الناخبين الأتراك ثم صعد سهمه وكبر رصيده حتى تمكن من إعتلاء عرش الحكومة. صحيح أن خلافا داخليا نشب بين المؤسس وبين تلميذه. ولكن الناظر نظرة إستراتيجية صحيحة لا يهمه في نهاية المطاف سوى أن الخيار الإسلامي إنتصر من بعد

عقود طويلات كاسحات على الخيار العالماني اللائكي التركي المتطرف جدا إذ بلغ تطرفه إلى حد إستبدال الأحرف العربية بالأحرف اللاتينية وإستبدال الأذان باللغة التركية وإلغائه بالتمام والكمال وإجراءات أخرى لا تقارن بما فعله بورقيبة في تونس لفرط التطرف العالماني الأتاتوركي تطرفا عجيبا جدا. راهن كثير من اليساريين والعالمانيين في البداية على أن الرجل عالماني قح ثم كشفت لهم الأيام أن الرجل كما قال هو بالضبط : مسلم يحكم دولة عالمانية. النقلة الحضارية الثقافية الكبيرة جدا في تركيا بثقلها التاريخي والإستراتيجي والجغرافي وحتى الإقتصادي والعسكري (عضو في الناتو) .. تلك نقلة مهمة جدا في موازين القوى الدولية الحاكمة اليوم. كاتب هذه السطور عاش مع رجال المرحوم أربكان عاما كاملا في أجهزتهم الداخلية بسبب تحمله لمسؤولية النهضويين النازحين إلى تركيا عام 1992 و 1993 محطة عبور إلى أروبا وفرارا من جحيم المخلوع بن علي. صاحب هذه السطور يدرك تماما قدر الغنوشي بسبب إجتهاداته الفكرية حول المرأة والديمقراطية عند قيادة حزب الرفاه الذين تحول جزء كبير منهم إلى قيادة حزب العدالة والتنمية.

الحدث الثاني جاء متأخرا نسبيا وهو يتعلق بالنصر المعزز المؤزر للمقاومة الفلسطينية في غزة العزة عام 2008 وذلك بمناسبة المحرقة الصهيونية المسلطة على القطاع على إمتداد خمسين يوما كاملة. محرقة جوية ومحرقة أرضية. محرقة أيقن بعدها الصهاينة وحلفاؤهم في الشرق والغرب ومن العرب والعجم أن القضاء على المقاومة حلم جميل جدا يداعب الأجفان ويباشر شغاف القلوب ولكن لا سبيل إليه على وجه الحقيقة. بث ذلك الحدث في النفوس جرعات كبيرة من التسلية والهدوء والسكينة والطمأنينة والأمل في مستقبل المقاومة الفلسطينية.

لم أتردد فيما كتبت ـ ولن أتردد ـ في القول بأن من دشن الثورة العربية الراهنة هم الأتراك عندما أنجزوا ثورة ديمقراطية عام 2002 ثم الفلسطينيون عندما أنجزوا نصر الصمود الأعظم ضد المحرقة الصهيونية عام 2008. ولا أظن سوى أن الثورة التونسية ليوم 14 جانفي 2011 وما جاء بعدها من ثورات في مصر وليبيا واليمن وسوريا .. كلها مندرجة ضمن ذلك المشروع العربي الإسلامي الحديث. مشروع نهضة جديدة.

ثم طويت هذه المرحلة الطويلة (عقدان كاملان من 1989 حتى 2011) بثورة الحرية والكرامة ليوم 14 يناير 2011.

التأسيس للدولة

أو مرحلة الحكم والسلطة.(2011-2013).

ظلت حركة النهضة تطرق الباب القانوني لوزارة الداخلية التونسية أملا في أن تنال حقها الطبيعي والدستوري في حزب سياسي قانوني .. ظلت كذلك من يوم 6 جوان 1981 فما تحصلت على ذلك الحق إلا من ثورة الحرية والكرامة المندلعة يوم 17 ديمسبر 2010 ولتنتصر بطرد المخلوع بن علي يوم الجمعة 14 جانفي 2011. كان حصولها على حقها حزبا سياسيا لأول مرة في تونس يوم الفاتح من مارس 2011. زهاء ثلاثة عقود كاملات فما كل لها متن.

هذه لحظة تأسيس أخرى وأخيرة حتى اليوم وهي مرحلة الدولة والسلطة والحكم. مبدؤها الأول هو ثورة 2011 ولكن مبدأها العملي هو فوز الحركة في أول إنتخابات تشريعية عامة ديمقراطية بأزيد من 40 بالمائة من أصوات الناخبين بقليل. الحركة تقود الحكومة منذ أزيد من عام كامل. هي مرحلة التأسيس للدولة أي دولة الثورة وحكومة الثورة. مرحلة التأسيس في الحقيقة لحضارة جديدة وثقافة جديدة. مرحلة التأسيس لدولة الشعب بعد القطع من لدن الثورة مع شعب الدولة. هذه مرحلة جديدة لا يمكن ـ في تقديري ـ الحكم لا لها ولا عليها. هي مرحلة جديدة وتجربة جديدة في البلاد وفي الحركة سواء بسواء. ربما يكون الحديث مناسبا عنها عندما تتقدم البلاد على الطريق الصحيح أي إنتخابات في آخر هذا العام الجاري 2013 فإذا فازت النهضة بأريحية تمكنها من تشكيل حكومة ـ بحسب ما سينص عليه الدستور الجارية كتابته في المجلس الوطني التأسيسي ـ فيمكن مواصلة الحديث عن التجربة الجديدة والمرحلة الجديدة. كلمات قصيرات فحسب حول هذه التجربة القصيرة جدا : الكلمة الأولى هي أن الحركة تواجه وهي تقود السلطة ثورة مضادة بأتم معاني الكلمة. ثورة مضادة تشترك فيها عناصر داخلية وخارجية كثيرة ولا فائدة من تعدادها فهي معروفة لكل مراقب منصف يقول الحق ولا يكتمه. تلك الثورة المضادة أثخنت تجربة الحركة القصيرة جدا في السلطة إثخانا كبيرا إذ وصلت حد الدعوة إلى إسقاط المؤسسة الشرعية الوحيدة في البلاد من بعد الثورة أي المجلس الوطني التأسيسي وذلك في إثر إغتيال الفقيد شكري بلعيد بل في اليوم ذاته (6 فيفري 2013) كانت تلك القوى تحضر البلاد إلى إنقلاب ضد الشرعية وضد الثورة وضد الإرادة الشعبية. الكلمة الثانية هي أن الإنطلاقة الأولى من بعد الثورة لم تكن موفقة أبدا إذ سلمت البلاد بأسرها ببساطة وبهتة وغفلة إلى كل من الغنوشي ثم إلى السبسي اللذين حقناها بسم مضاد سيظل يلازمها لسنوات طويلة قابلة ولولا القصبتين 1 و 2 لكان الذي كان. الإنطلاقة لم تكن كذلك موفقة بسبب إنتهاج خيار أجرب هجين يقود البلاد برؤوس ثلاثة. لم تكن كذلك الأنطلاقة موفقة بسبب تخصيص عام واحد لكتابة الدستور في مرحلة إنتقالية وفي تلك المرحلة الإنتقالية القصيرة جدا تتحدث الحكومة والمعارضة والناس أجمعون عن مشاريع

إستثمارية وإقتصادية ومعالجات للبطالة والتفاوت الجهوي والحقيقة أن ذلك هو برنامج حكومة غير مؤقتة بالتعبير الإعلامي وفي حالة إستقرار كبير جدا وذات صلاحيات واسعة دستوريا.
الكلمة الثالثة والأخيرة هنا هي أن الحركة حقنت الشارع التونسي بأنها مرتبكة في ملفات مهمة منها ملف محاربة الفساد وإستئصال منظوماته التي لم يستأصل منها سوى المخلوع بن علي.

إلى هنا نكون قد أكملنا الحديث عن اللحظات التأسيسية الأربع في تاريخ الحركة وكذلك عن المراحل الأربع فيها. حاولنا أن نلتقط بعض القوانين التي كانت تحكم ذلك المسار الطويل. نحتاج إلى أمور أخرى حتى تكتمل الصورة. نحتاج إلى بسطة صغيرة عن الرجال الذين تركوا بصمتهم واضحة في الحركة وعددهم قليل جدا بما لا يأخذ منا وقتا كبيرا. كما نحتاج إلى ملحقات أخرى نتحدث فيها عن بعض الأمور التي لم يتسع لها المجال فيما سبق عرضه. فإذا أفلحنا في خاتمة مركزة مكثفة في فقرة صغيرة تكون خلاصة صحيحة أو حصيلة محملة مثقلة .. إذا أفلحنا في ذلك نكون قد أنهينا هذا العمل المنشود.

الباب الثاني : قوانين حكمت الحركة نشأة وتطورا

دعني أقتبس في البداية كلمات قصيرات من أول كتاب ـ ربما ـ تناول قضية الحركة سيما من حيث النشأة وتحليلها وهو كتاب الإسلام الإحتجاجي للدكتور محمد عبد الباقي الهرماسي أستاذ علم الإجتماع والعميد المساعد ـ سابقا ـ في كلية الأداب والعلوم الإنسانية بالجامعة التونسية.
الكتاب يرجع تأليفه إلى بداية العقد الثمانيني (ربما 1982 - 1983).

يقول في صفحة (2) : „ أما فيما يتعلق بأصل ظهور الحركة فإن ثمة سببا بدهيا للغاية لدرجة أنه نادرا ما يؤخذ بعين الإعتبار أو نادرا ما يولى من الإهتمام ما يناسب وزنه الحقيقي ذلك أنه من بين كل البلدان العربية تنفرد تونس من ناحية مهاجمة النخبة التحديثية فيها للإسلام المؤسساتي في شكل علني وتفكيك هياكله التحتية بإسم إصلاح منهجي للوضع الإجتماعي والثقافي".

ثم يقول في كلمة شدت إنتباهي كثيرا في الصحفة (3) : „ وها هو المكبوت الإجتماعي يسجل عودته المفاجئة عند أول فرصة". لا أجد تفسيرا أروع من هذا التفسير ولا أصدق منه. حركة النهضة (أي الجماعة الإسلامية عام 1969) هي مكبوت إجتماعي منفجر بمثل ما يكون مآل كل مكبوت هو الإنفجار وليس سوى الإنفجار. إنفجر في تونس بطريقة سلسة و كان عنوان الإنفجار هو البحث عن ذات فقيدة ثم تطور البحث وظفر بالذات فلما ظفر بها وجدت أنها متعددة الأبعاد وليست أحادية البعد فتسيست وبدأت في التطور من ذلك اليوم.

دعنا نواصل مع هذا البحث القيم جدا إذ يقول صاحبه في صفحة (4) :" متوسط عمر أعضاء الحركة يستقر في حدود 25 سنة. كما نحصي نسبة تتعدى 50 بالمائة من الأفراد الذين لم يبلغوا بعد الثلاثين سنة. „ ثم يقول في موضع آخر من الصفحة ذاتها : „ .. دليلا على التواصل بين الجيلين وعلامة على التجذر الإجتماعي ". الجيلان المقصودان هنا هما : الجيل الزيتوني والجيل

الحديث. ثم يقول في الصفحة ذاتها : „ إنها إذا حركة شابة وإنهم شباب مثقفون .. وإن حصة المنتمي منهم إلى قطاع التعليم لا تقل عن 75 بالمائة من أساتذة تعليم ثانوي وطلبة ". ثم يقول في الصفحة (5) : „ منذ البداية تبين أنه يجدر تسجيل مجموعة من الخصائص المميزة للحركة الإسلامية ومنها : قوة الدعوة في الوسط الريفي وأساسا في القرى وكثافة عدد الإسلاميين في الكليات العلمية والمشاركة الواسعة للنساء .. أما على المستوى الجهوي فتبقى العاصمة تونس نقطة الإرتكار لمدينة لها منزلة دولة ففي حين ينحدر 29 بالمائة من مجموع العينة من العاصمة فإن السواحل تساهم بنسة 38 بالمائة بينما يتحدد نصيب كل من الجنوب والشمال الغربي ب 23 بالمائة للأول و 7 بالمائة للثاني". ثم يقول في صفحة (11) :" يستمد الإتجاه الإسلامي جابنا من قوته من طبيعته كـ(حركة) .. فهو يستمد فعاليته من قدرته على إستعمال الكلمة ومن الحركيات في كل المجالات ومن إخلاص أفراده المطلق." دعنا نستمع مرة أخرى إلى أروع ما قال هذا القارئ الإجتماعي القدير وذلك في صفحة (19) :" فالحركة الإسلامية تنبثق عن تحولات المجتمع التونسي في وقت تحاول فيه توظيف وإستغلال هذه التحولات ". لئن كتب هذا التحليل الإجتماعي ـ وما أحوجنا اليوم أيضا إلى تحيين إلى هذه القراءة الإجتماعية ـ قبل أزيد من ثلاثة عقود كاملات فإن القانون الذي خضع له التحليل ـ أي التوافق التلقائي حتى ليكاد يكون فطريا غريزيا لا بل هو كذلك ـ هو ذاته القانون الذي ظل يصاحب التحولات في الحركة. أجل. عندما تكون حركة ـ أو أي كيان ـ متوافقا في تحولاته وتطوراته مع تحولات وتطورات الوعاء الأجمع الذي يحتضنه فإن ذلك الكيان لهو ظاهرة إجتماعية جديرة بالدرس ألف مرة ومرة. ثم يورد المحلل الإجتماعي الجدير بالإحترام في هذا العمل مقالا بإسم التغريب وحتمية الدكتاتوريات وهو مقال للغنوشي ـ أذكر جيدا أنه طرح علينا ضمن الوجبة الفكرية للنظام الخلوي في بداية العقد الثمانيني. المقال يلخص قانون النشأة بكلمة واحدة ومؤداها هو أن الحركة صنيعة التغريب الفرنكفوني المتطرف جدا الذي إستورده بورقيبة إلى الأرض التونسية محاولا إستنبات نموذج لا تقبله الأرض التونسية بأي حال من الأحوال شأنها في ذلك شأن أي عضو مزروع إما من لدن طبيب غير ماهر أو في جسم لا يلائم ذلك الزرع. فتحصل من عملية الزرع التغريبية حصول رفض للمشروع البورقيبي ـ أي في نسخته الثقافية والسياسية بالتحديد ـ ثم حصول إستبداد من لدن الزارع لما رأى من التهديدات التي تحيق بحرثه في إثر الرفض الشعبي فإذا كان الرافض هو الشاب المثقف المتخرج من الكلية العلمية التي أنشأها بورقيبة لتنشئة جيل جديد يحمل مشروعه.. إذا حصل ذاك فلك أن تدرك على وجه الدقة القانون الذي خضعت له حركة النهضة في نشأتها قبل أربعة عقود ونيف.

لنمض مع التحليل الإجتماعي الباهر ولكن في مرحلة أخرى من مراحل تطور الحركة. الآن في مرحلة التحول من الراديكالية العقدية إلى الواقعية السياسية. لا تجعل نفسك أسير التعبيرات وكن مقاصدي الروح. يقول المحلل في الصفحة (23) :" لقد كانت تونس هي الموضوع الأساسي للولاء بالنسبة إلى 55 بالمائة من الطلبة و 75 بالمائة من الكوادر والمجوع الكلي للعمال المستجوبين في حين لم يحصل الوطن العربي وفي أحسن الحالات على ولاء أكثر من ربع العينة." عندما تتحول حركة إسلامية من مناخ لا بد له أن يكون راديكاليا بطبيعة الأشياء وليس

وصفا سلبيا للراديكالية عندما تكون في حقلها المناسب لها .. عندما تتحول من تلك المرحلة التأسيسية الأولى إلى مرحلة سياسية جديدة ويكون ولاؤها لوطنها أي لتونس في صورة الحال.. وفي تلك الأزمنة المبكرة جدا .. عندما يكون ذلك كذلك فلا ريب في أن التحول يكون إيجابيا وعلى الطريق الصحيح. ذلك يعني أن الإشكالية الفارغة المطروحة اليوم بين مختلف أوعية الولاء ومستوياته ودرجاته هي إشكالية حسمت في الحركة منذ أزيد من ثلاثة عقود كاملات. لا تجد أي تفسير مقنع لعودة تلك الإشكاليات الفارغة سوى أن التاريخ يعيد نفسه. التاريخ يعيد نفسه كما تعيد الشمس كل يوم نفسها مشرقا ومغيبا وبمثلها النهار والليل.

لا مناص من الرجوع إلى الدراسة الإجتماعية التحليلية الرصينة جدا لمن يريد معرفة النشأة وتطوراتها في الحركة بحق وجد وليس هو من اللاهين أو العابثين أو من الببغاوات التي لا تجيد غير اللعبة القرودية المحبذة أي الإجترار والتقليد.

مخ هذه الورقات هو : ما هي قوانين النشأة وسنن التطور

هي محاولة مني قد أفلح فيها وقد أخفق ولكن الحوار مطلوب.

الإزدواج الإيجابي : وقد شرحته في المقدمة وهو يعني الإنفتاح غير المشروط على مختلف التجارب والمدارس بقصد الإفادة إذ الحكمة لا يحتكرها أحد ولا هي ملك أحد. هذا القانون هو في تقديري أكبر قانون وأقوى سنة. ذلك أن مساحات نفاذ هذا القانون كثيرة منها مثلا أن الحركة ليست حركة دينية فحسب ولكن الدين ـ أي الإسلام هو منطلقها الإصلاحي الأول ـ وهي ليست حركة إسلامية فحسب ولكن الدعوة ـ التي هو أول مقتضى للتدين ـ هم من همومها وهي ليست حركة سياسية فحسب ولكن المنافسة على الحكم والمعارضة ومحاولة التأثير في موازين القوى هموم من همومها وهي ليست حركة تقليدية فحسب ولكن التحديث هم من همومها وهكذا.. ذلك هو الإزدواج المقصود وهو المسؤول الأول في تقديري المتواضع عن القوانين التالية وهو المسؤول الأول في تقديري المتواضع عن نشأة الحركة وعن تطورها.

الواقعية : وهي في مقابل المثالية. هذا القانون لم يكن جليا في البداية أي في بداية النشأة ولكنه نشأ من بعد أول أكبر إنكشاف أي إنكشاف 5 ديسمبر 1980. الواقعية المقصودة هنا هي الإنخراط العملي في آلام الواقع وآماله بقصد معايشتها والمساهمة في حلها.

المؤسسية : ويقابلها المشيخية بمثل ما يقابلها الفوضى المفضية إلى الإستبداد بالرأي. تمأسست نشأة الحركة في إثر الهجوم البوليسي على الإجتماع التلقائي العفوي العلني في أكبر مساجد سوسة عام 1973. ثم ظلت الحركة كذلك في الظاهر والأصل ولكن ـ كما أكدت مرارا وتكرارا فيما تقدم في هذه الورقات ـ الوفاء للمؤسسية لم يكن دوما على أحسن ما يرام ولكن كان الثقل الموازي لكبح إرهاصات الإستبداد دوما حاضرا. تلك هي النخبة التي آمل تواصلها وأخشى عليه

.

الوضوح والسعي إليه : كان الوضوح يتجلى في البداية في رسم هدف واضح جلي إسمه الدعوة إلى الإسلام. هدف واضح ولا علينا الآن في واقعيته أو صحته. الوضوح في الأشياء لا يبالي بصحتها. ثم كان الوضوح جليا كذلك في مرحلة التحول من جماعة إلى حركة ومن الدعوة إلى السياسة ومن نبذ العنف إلى إستعادة الطبيعة السلمية للحركة وفي محطات أخرى. أما السعي إليه فقد جاء مبكرا جدا وذلك عبر مشروع الأولويات الكبير إذ ظلت الحركة تبحث عن هويتها السياسية والتنظيمية من بعد الظفر بهويتها الفكرية والعقدية. بقي ذلك الوضوح ولكن السعي إليه فيما يتعرض إليه الناس اليوم من إشكالات فكرية جديدة تحملها العولمة .. بقي السعي إليه في حالة إحتضار فهل يموت ويلفظ أنفاسه الأخيرة أم يقع إنعاشه؟ الجواب ليس عندي ولكنه عند الحركة.

التحديث والإجتهاد والتطوير والتجديد : هو فرع مشروط من فروع السعي إلى الوضوح. أفردته بالذكر لأنه كان عامل قوة كبير جدا في الحركة ذات يوم. بل لم تستطع الحركة مواكبة التطورات في الأرض وفي البلاد إلا بإستخدام تلك الآلة التي أظهرت أنها آلتها التي تملك حق الإختراع فيها وليست آلة مستوردة. ليس هناك اليوم ما يؤلمني في الحركة أكثر من تخليها عن فريضة التحديث.

نخل الكسب والخضوع للمحاسبة : هو كذلك من مقتضى الوضوح ومن مقتضى التجديد كذلك ولكن أفردته لأن الحركة كانت سباقة به ونشرته كاملا أو نشرت أغلب أجزائه. ولكن عاملين يزعجانني : أولهما أنه في مساحات غير قليلة وفي أزمنة غير يسيرة يتجه التقويم بخلاصاته إلى جهة ثم نتجه نحن إلى الجهة الأخرى (تغول السياسة على الدعوة مثلا) وثانيهما أن المحاسبة عمل يؤذن بالتوقف هو الآخر. محاسبة السياسات والخيارات والتوجهات ومحاسبة المؤسسات ومحاسبة الرجال. لا أخفي تخوفاتي التي تؤرقني لأجل أن يرضى هذا أو يسخط ذاك.

ترسخ الحركة على المقاومة المدنية : ذلك قانون إجتماعي أنا أعزو إليه كل النجاحات التي حققتها الحركة وهي كثيرة أما الإخفاقات وهي كذلك كثيرة فليست تعزى لدوس ذلك الترسخ ولكن لعوامل أخرى. هذا أمر أنا فيه بين الأمل وبين الخشية. حتى أكون صريحا صراحة ما بعدها صراحة في هذه الورقات أقول : إشتد الأمل في الأجيال الأولى أن تتخذ العنف وسيلة وتوطن اليأس عندي في ذلك يأسا ما بعده من بارقة أمل. أما الخشية فهي على أجيال جديدة لم تتطعم بعد بالوجبات الفكرية والعقدية والسياسية التي تحول دون ذلك لتكون حقنا ناجعة وليس مصبرات مؤقتة ولا مكبلات مرغمة ولا حتى تكتيكات سياسية كما يظن بعض الناس فينا. أقول ذلك لأن ذلك الترسخ فينا كان عمليا بالمعايشة والإفادة من معطيات الواقع أولا ثم رفدناه بما يحتاج من توثيقات عقدية وفكرية. هل يحدث ذلك اليوم في الأجيال الجديدة؟

أثمر ذلك الترسخ ما أعده أنا تحول الحركة إلى مدرسة في الصبر على المنهاج السلمي وتحمل الأذى. الحركة الآن عندي مدرسة شامخة في منهاج إسمه : البلاغ المبين والصبر الجميل. لذلك أديرت المعركة ـ معركة الوجود والمقاومة ـ في العقدين الأخيرين إدارة إيجابية جدا. الصبر

مسلك نفسي لا يأمن على نفسه المصابرة والتصبر دون أن يتغذى بالوجبات الفكرية المناسبة.

الموازنة بين الوحدة وبين الحرية : تلك إشكالية تعرضت لها الحركة طويلا وكثيرا. ليست هي إشكالية خاصة بالحركة ولكن الناجح فيها لا بد له فيها من وعي فكري كاف ولا بد له فيها من حسن أداء. الجاهلون ببواطن الأمور ممن " يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا " فحسب يظنون أن الوحدة لا تدار إلا بحبس الحرية قدر الإمكان ثم يضيقون من مساحات الحرية ويجعلون من الذيول كليات ومن الظنيات قطعيات فيضيقون بالإختلاف وقد ينصرفون عن الحركة وهم في أنقى ذروات الإخلاص. ومثلهم ممن يسير في الإتجاه المعاكس يظنون أن الحرية هي الأصل الذي لا بد من مزاولته حتى لو أفضى إلى أن يخر السقف جملة وتفصيلا وكثير منهم لا يأمن على نفسه أن ينضوي تحت المشروع المقابل لمشروع الحركة الإسلامية. الحركة نجحت في تلك الموازنة ـ وهي عسيرة حقا ـ نجاحا كبيرا ولذا كانت ظاهرة الإنشقاق فيها محدودة جدا. هو ميزان من يمسك به فكأنما يمسك جمرا حاميا براحة يده. من هذا الجانب لست متشائما على مستقبل الحركة. التجربة الفارطة كفيلة ببث الحياة لسنوات أخرى طويلات. ومن بعد ذلك لسنا مسؤولين على أجيال جديدة.

تلك هي القوانين التي خضعت لها الحركة فيما مضى بحسب تقديري المتواضع. وتلك هي السنن التي نشأت عليها الحركة ثم تطورت بمقتضاها.

معارك أربع خاضتها الحركة وفرض عليها خوضها : معركة الهوية ضد المشروع البورقيبي الإلحاقي ومعركة الحرية ضد دولة التجزئة والتبعية ومعركة الوسطية ضد تيارات غربية وافدة من جهة وضد تيارات إسلامية قوامها التكفير بالجملة والتفجير بالجملة من جهة أخرى ومعركة الوحدة الداخلية ضد محاولات الشق بالترهيب أولا ثم بالترغيب ثانيا.

لحظة تأسيس جديدة فارقة بها الحركة حبلى

هي ثاني أكبر لحظة تأسيس في الحركة بحسب تقديري المتواضع لو أنجزت. أول لحظة تأسيس فارقة عندي هي لحظة 5 ديسمبر 1980 وما تلاها من مؤتمر 1981 وإعلان 6 جوان 1981. لا أظن أن الحركة مرت بلحظة تأسيسية جديدة فارقة بمثل تلك اللحظة حتى اليوم. أجل حتى اليوم. ذلك تقديري. أما اللحظة التأسيسية الفارقة الجديدة التي هي محل مخاض تعتمل بها مهجة الحركة ومنذ سنوات طويلات ـ بل في الحقيقة هي بالقوة بالتعبير الفلسفي منذ لحظة 6 جوان ـ فهي لحظة بناء علاقة جديدة بين الدعوة وبين السياسة أو بين الحركة وبين الحزب. علاقة جديدة إسمها عندي : علاقة الجمع بين الوصل وبين الفصل. أما التفاصيل فليس هنا محلها.

المحور الثالث : حصائل عامة

الباب الأول : مواقف.

لا يمكن حصر كل المواقف التي إتخذتها الحركة على إمتداد أربعة عقود ونيف ولا حتى رصد جل تلك المواقف ولا أظن أن عاقلا يكلف نفسه ذاك ولا أظن أن فطنا كيسا يرقب من متحدث ذاك. إنما المطلوب إنتقاء بعض المواقف التي تتطلب ـ ربما ـ تجلية أو التي تثير لغطا حتى اليوم. ومن ذا أنتقي المواقف التالية.

المساجد

الموقف المسطر هنا موقفان : أحدهما عملي والآخر نظري. لم يكن للحركة في البدء موقف نظري معلن عنه من المساجد أي من إستخداماتها. وإنما كان الموقف عمليا مباشرا وخلاصته أن المسجد مؤسسة أهلية مدنية لا يحتكرها أحد لا من السلطة ولا من المجتمع وبمثل ذلك لا يمنع أحد من الذب عنها وعن رسالتها إذا ما وقع الإعتداء على تلك الرسالة. فما هي رسالة المسجد في نظر الحركة؟ رسالة المسجد هي رسالة الإسلام أي رسالة الحياة أي رسالة مزدوجة فهو مؤسسة تعبدية خاصة بالمسلمين من الجانب التعبدي وهو مؤسسة إجتماعية تفعل إجتماع المسلمين وتوطئ للقاءاتهم وهو مؤسسة فكرية تتداول فيها الأفكار لمقاصد تنويرية وتوعوية وحوارية وهو مؤسسة شورية وهو مؤسسة علمية وهو مؤسسة روحية تعبوية تحريضية تحض على فعل الخير والتعاون على البر والتقوى والتكافل على الحق والصبر والمرحمة والتواصي بها وهو مؤسسة تعددية تحت السقف التعددي الإسلامي أي لا يضيق بمدرسة إسلامية ولا بمذهب إسلامي ولا بأي شيء كلما كان تحت السقف الإسلامي وبرضى الناس أي برضى أغلبهم وهو مؤسسة تنظيمية أي تخضع لنظام وترتيب وهو نظام يرتب الأدوار ويجمع بينها ويحفظ المؤسسة ويتعهدها وليس هو نظام قمعي يقدم هذا وينبذ ذاك. إستخدمت الحركة المساجد وفق تلك الرؤية ومن ذا كان التداول السياسي فيما يهم الأمة والبلاد داخل المساجد. كلمة الفصل هنا هي أن السياسة في نظر الحركة جزء لا يتجزأ من الإسلام الجامع الذي تدعو إليه وبذا تكون السياسة مادة من المواد المسجدية مثلها مثل التعبئات الروحية والوجبات الفكرية والأغذية التعبدية. أما التحزب والحزبية فهما أمر آخر له علاقة بالسياسة دون ريب ولكنه ليس مقتضى من مقتضيات التداول السياسي في المساجد وليس خارج المساجد وذلك بسبب ما ذكر آنفا أن المسجد مؤسسة تعددية لا تضيق بصاحب رأي تحت السقف الإسلامي ومن المعلوم أن السياسة حقل لتعدد الآراء كما وقع في العهد الإسلامي الزاهر أي عهد الصحابة الكرام. التمييز إذن واضح جلي بين السياسة في المساجد وهي مطلوبة وليس مجرد مستحب أو مباح وبين التحزب والحزبية لا دعوة ولا تنفيرا وهو أمر مرفوض وليس مجرد مكروه أو محذور. أظن ـ بحسب تجربتي الواسعة في المساجد وفي الحركة على إمتداد أربعة عقود ـ أن الحركة لم تتورط ـ حتى ثورة 14 يناير 2011 ـ على

الأقل في الحزبية والتحزب داخل المساجد. أما السياسة تفكيرا وتداولا وتنويرا وتوعية وتناولا من كل الجهات والجوانب فهي الأمر الذي ظللنا عليه وسنظل عليه. لمن أراد التمييز وهو يقدر عليه فذلك هو الموقف عمليا ونظريا ولمن لم يرد التمييز وهو يقدر عليه أقول : سلاما. ولمن لم يرد التمييز لأنه لا يقدر عليه أقول : أذهب الله عنك الطمسة. الموقف النظري لا حاجة لي به لأن الموقف العملي كاف وزيادة من ناحية ولأنه معلوم من ناحية أخرى. هذا مثال واقعي : لمن يريد اليوم أن ينتقد الأداء الحكومي في المسجد بطريق الإمامة والخطابة أو بغيرها فله ذلك بالتعبير السياسي المنطوق الأبلج ولا حرج على ذلك ولا تثريب ولكن ليس له التنفير عن النهضة من حيث أنها حزب سياسي أو حركة إسلامية بسبب أن الحكومة المنتقدة موجهة من النهضة أو مقودة منها. الذي يفعل ذلك يزاول التحزب والتحزيب ولكن الذي ينتقد الحكومة النهضوية يزاول فعلا سياسيا مباحا في المساجد.

الشريعة

لا بد لي من إلتزام الإقتصاد هنا لأن الموضوع يحتاج إلى ورقات طويلة. الموقف النظري العام من الشريعة هي أنها جزء من الإسلام لا يتجزأ. إذ الإسلام عقيدة وعبادة وشريعة ونظام أخلاقي وقيمي ومعاملاتي عام جامع لا يند عنه حقل في الحياة بل هو منهاج حياة أو هو ثورة تحريرية جامعة. ولكن الحركة تميز دوما ـ هنا وفي كل حقل ـ بين الموقف النظري وبين الموقف العملي. التمييز بين أمرين لا يعني الكفر بأحدهما ولكنه يعني إستخدام الفرز المطلوب سيما عند التنزيل إذ للتنزيل فقهه كما أن للفهم فقهه فإذا تداخل الفقهان ـ بدل التكامل ـ تداخلت الحياة وإضطربت. التمييز المطلوب هنا هو التمييز الذي يقتضيه الواقع والواقع ـ المعبر عنه بالمناط والمآل ـ في أصول الفقه ومقاصد الشريعة ومقامات التشريع هو أصل من الأصول الثلاثة للتنزيل وهي : النص والمقصد والمآل. الشريعة إذن حكمها حكم العقيدة نظريا وعقديا ولكن تنزيلها ليس كذلك لأنها في محل يشترك فيه الناس معنا إذ نحن في ملعب لا نحتكره ومن يحتكر حياة الناس ليوجهها كما يريد هو؟ الشريعة إبتداء هي كلمة تجمع إليها كل ما عدا العقيدة أي كل ما عدا ما يتعلق بالضمائر والقلوب والصدور والعقول. لذلك ليس هناك شريعة تعبدية وأخرى معاملاتية وأخرى قيمية وليس هناك شريعة سياسية وأخرى مالية وأخرى خارجية. ليس هناك ذلك التمييز من حيث الأصل الفكري والعقدي والتصوري. الشريعة واحدة وهي كل ما خرج عن نطاق الضمائر والقلب والعقل والإعتقاد. الشريعة هي العمل والقول عمل دون ريب. أما بالتفصيل فهناك شريعة سياسية لبها في الإسلام الحرية والكرامة وهناك شريعة مالية لبها في الإسلام العدالة الإجتماعية كسبا وتكافؤا وتوزيعا وهناك شريعة خارجية لبها في الإسلام التكافل على الحق والبر والتقوى والمرحمة والصبر والخير مع الموافقين ومع ما نقدر من ذلك عليه مع المخالفين ومع إستخدام القوة لردع الظلم والإنتصار للمقهورين مع الغزاة والمحتلين. وهكذا لكل حقل شريعته الخاصة فإذا إكتملت الحقول إكتملت الشريعة وإذا إكتملت الشريعة أصبحت جزء لا يتجزأ من العقيدة وذلك هو الإسلام في نظرنا. أما التطبيق في كل تلك المحال التشريعية داخليا وخارجيا وسياسيا وماليا وتعزيريا وجنائيا .. التطبيق يراعي ثلاثة أمور لا بد من توفرها فإن

تخلف واحد منها فحسب تخلف التطبيق حتى يحضر المتخلف : الأمر الأول الذي يرتهن إليه التطبيق هو الرضى الشعبي لأن التطبيق أمر موكول إلى الإنسان بإختياره وإرادته وليست الشريعة أمرا تطبق على من رضي وعلى من لم يرض. الأمر الثاني هو فقه المقصد وفقه المقصد هنا مطلوب بل مفروض وموجوب وليس نافلة وفقه المقصد هنا متاح لكل عاقل متعلم. الأمر الثالث هو فقه المآل أي فقه الواقع بالتعبير المعاصر. إذا إلتأمت كل ذلك نفذ التطبيق. الرضى الشعبي مضمون في الحالة التونسية لأن التونسيين كلهم مسلمون والعبرة دوما في الشريعة بالأغلب الأعم ولكن للأقلية حكمها الخاص بها ما رضيت بأساسات الدستور العام. عند هذا الحد أظن أن الأمر واضح جلي أما الخلاف عليه فلا أؤكده ولا أنفيه ولكل وجهة هو موليها. تطبيق الشريعة الإسلامية ـ إذن وبالخلاصة ـ مطلب إسلامي واقعي صحيح وهو مقتضى عقدي ولكنه يحتاج إلى تفصيل وتمييز لأن تطبيق العقيدة أمر شخصي وتطبيق الصلاة أمر شخصي كذلك وإن كان يحتاج إلى أمر عام في صلاة الجماعة وغيرها ولكن تطبيق الحدود الإسلامية ـ مثلا ـ هو أمر عام وليس أمرا شخصيا. الأمر العام لا بد فيه من الأمور الثلاثة المذكورة آنفا. بقدر نفاذ الحرية اليوم إذن في تونس تكون الشريعة السياسية في الإسلام نافذة. وبقدر نفاذ العدالة الإجتماعية اليوم إذن في تونس تكون الشريعة المالية في الإسلام نافذة وهكذا دواليك. أما النظرة العوراء الحولاء العرجاء القطعاء للشريعة لتكون شريعة جدباء جرباء معناها الشريعة الجنائية الجزائية العقابية فحسب .. تلك نظرة العرج ولسنا بعرج عافانا الله من العرج.

كلمة أخرى خاتمة وحاسمة في الموقف من الشريعة تطبيقا وليس إعتقادا : الحرية مقدمة على الشريعة بل الحرية مقدمة على العقيدة كذلك. أي تطبيق الشريعة السياسية مقدم على تطبيق الشريعة الجزائية وهي كذلك مقدمة حتى على تطبيق الشريعة العقدية. تطبيق الشريعة السياسية معناه البحث عن السبل وتهيئة المناخات إذ ليست السياسة حقلا يقبل الإحتكار من أي كان إلا إحتكار القوة الذي يلجأ إليها الطغاة ولا يدخل ذلك في موضوعنا.

الحكم الشيوعي

أقتصر هنا على كلمة واحدة صرح بها رئيس الحركة الشيخ الغنوشي منذ عام 1980 والكلمة الشهيرة التي هي موقف الحركة هي : إذا فاز الشيوعيون بالحكم في إثر إنتخابات ديمقراطية فليس لنا سوى إحترام إرادة الشعب ولكن نحتفظ بحقنا في العمل لتغيير موازين القوى لصالحنا حتى نفوز بالإنتخابات التالية أو بالتي تليها. لا ينطبق الكلام عن الشيوعيين فحسب ولكن ينطبق على كل مخالف سواء تحت المظلة الإسلامية أو خارج المظلة الإسلامية. لا تقدس الحركة شيئا بعد القدسية المطلوبة لعقائد الإسلام مثل الحرية الحقيقية الصحيحة المسؤولة إذ هي مناط التكليف وهي علته وسببه ومقصده الأصلي. هذا الكلام عندما ينظر إليه ذو العينين يرى فيه إزدواجا إيجابيا مطلوبا أي أنه يقتضي بالضرورة أن التونسيين لا يظن أنهم ينتخبون الشيوعيين والإسلاميون في حالة ترشح. أما عندما ينظر إليه الأقطع فهو لا يرى فيه سوى النصف الفارغ من الكأس أي أن الشيوعية ـ مثلا ـ نظام يساوي النظام الإسلام أو عقيدة تساوي العقيدة الإسلامية. المرآة التي تنظر إليها في الصباح الباكر وأنت تهم بالخروج إلى الناس لا تفعل شيئا

أكثر من أنها تعكس صورتك عليها. هي لا تحسن ولا تقبح.

المرأة

الموقف العملي من المرأة معروف ولا يحتاج لعشر معشار كلمة. الموقف النظري هو أن المرأة لا تحرم بإسم الإسلام من تقلد أي منصب ولكن بشرط واحد هو أن تكون من أهل ذلك المنصب وفي محلها المناسب أو الأنسب. أن تكون من أهله يجعلها على قدم المساواة في ذلك مع الرجل ولذلك أجاز الطبري لها القضاء أصلا وغيره كذلك إذ العبرة في الأهلية بأمرين : العلم ورضى الناس فيما لا بد فيه من رضى الناس من مثل المسؤوليات السياسية وغيرها. أما أن تكون في محلها المناسب فذلك يعني ألا يكون ذلك على حساب بيتها إن كانت صاحبة بيت أي أن الموازنة هنا والموافقة بين الأمرين مطلوب لئلا نهدم مؤسسة الأسرة فينهدم المجتمع بالضرورة وتنهدم المؤسسات التي نرشح لها المرأة أو تترشح لها المرأة. النساء هنا يختلفن كثيرا فمنهن التي توفق في الجمع بين الأمرين ومنهن التي لا توفق ومنهن التي لا مسؤولية عليها في البيت وغير ذلك من الإختلافات ومن شأن التشريع الناجح أن يتجه إلى الأعم الأغلب في حياة الناس والإستثناءات تعالج بقدرها على ضوء تلك الكليات الكبرى. أهم شيء هنا هو أنه لا تحرم المرأة ـ لا بإسم الدين ولا من حيث التقرير الإطلاقي المبدئي العام ـ من تحمل أي مسؤولية سياسية وقضائية وإدارية سيما في الواقع المتجزئ للأمة إذ لا تعد تونس مثلا محل إمامة عظمى وعند إلتئام شمل الإمامة العظمى فينا يكون لكل حادث حديث. ذلك هو التقرير النظري والتطبيق ينطبق عليه ما ينطبق على الشريعة فيما ذكر آنفا بالضبط. أي أن الحاجة والضرورة والخيار وغير ذلك من المقيدات والمصالح والذرائع فتحا وسدا .. ذلك هو المعول عليه في تنفيذ الإستثناءات على ضوء المبدأ الكلي المقرر هنا أي الإباحة الأصلية. الموقف الأصلي من المرأة عنوانه " إنما النساء شقائق الرجال ". المرأة كيان كامل الكينونة والإنسانية والبشرية والكرامة والحرية والعقل والعلم والقابلية للكمال النسبي ـ إذ الكمال الحقيقي لله وحده سبحانه ـ مثلها مثل الرجل بالتمام والكمال. المرأة كائن مسؤول محرم مستأمن مستخلف راع مثلها مثل الرجل بالتمام والكمال. لا يفضل الرجل المرأة بشيء ولا تفضل المرأة الرجل بشيء ولكن يشتركان في أشياء ويختلفان في أخرى وما كان ذلك كذلك إلا لينشأ بينهما التكامل الذي لا بد منه.

الوحدة العربية.

لا أحتاج هنا إلى كلمة بسبب أن الموقف العملي ورد في سياق إغلاق بورقيبة لمجلة المعرفة بسبب تأييدها للوحدة الإندماجية العربية مع القذافي أي مع ليبيا في الحقيقة. ثم تطور الموقف ليعبر عنه من بعد ذلك بسنوات طويلات ويصبح : الوحدة العربية مقدمة على الوحدة الإسلامية والوحدة الوطنية مقدمة على الوحدة العربية. أي إعتماد التدرج الوحدوي لا الطفرات الإندماجية التي فشلت بين تونس وليبيا وكانت قد فشلت قبل ذلك بين مصر وسوريا.

السلفية

قبل أن أمضي في التعبير عن بعض مواقف الحركة لا بد لي من ملاحظة قوامها أن ما صدر في هذه الورقات من مواقف تعبر عن الموقف الأصلي الصحيح للحركة فهو ذاك وما كان خلاف ذاك فلا يلزم هذا الحركة في شيء وهو موقف صاحب هذا القلم. هذا الكراس هو بقلمي أنا ولكنه يتحدث عن الحركة وتجربتها.

الموقف من السلفية يتطلب كلاما كثيرا جدا وذلك بسبب إختلاط الموقفين بعضهما ببعض : الموقف الفكري والموقف السياسي. معلوم أن حركة النهضة كانت توصم بالسلفية لسنوات طويلات أي منذ تأسسها السياسي الثاني عام 1981 وحتى سنوات قريبات. لم تكن لنا في تلك الأيام حساسية مفرطة من ذلك الوصم إلا ما سيق منه مساق السخرية والإستهزاء. السلفية عندما تعني هذا بالتحديد : الترسخ في الأصول الآصلة بمثل ما قررتها الكليات الإسلامية في الكتاب والسنة والجمع إليها إقتباس الجديد النافع الذي لا يتعارض مع تلك الأصول الآصلة سيما في الحقل الوسائلي والحقل المعاملاتي .. عندما تعني السلفية ذاك فأنا سلفي حتى النخاع. أما إذا تأخرت السلفية عن ذاك فكات حولاء تجمد على الأصول وتنبذ الإقتباسات المفيدة وسائليا وعمليا من بعد نزع حمولاتها العقدية وقلع أثقالها الفلسفية الفكرية .. أو كانت نابذة لتلك الأصول منفتحة على الجديد إنفتاحا غير محدود فتقتبس منه ما حقه الثبات من مثل العقائد والعبادات والشعائر والشرائع والمعلوم من الدين بالضرورة .. عندما تتأخر السلفية عن ذاك بأي وجه من وجوه التأخر المذكورة هنا إختصارا فإن السلفية عندي بضاعة مستوردة لا تلزمني في شيء. لو أردت الغوص أكثر من ذلك فإن العناوين لا حاجة لنا بها إذ يكفينا الإسلام الذي لم يمتدح أي عنوان سوى عنوان واحد هو عنوان الوسطية. ولكن لا مانع من تقمص العناوين عندما لا تكون ناقضة للمضامين. أي أن الذي يهمني هو المضمون وليس العنوان. لا ضير أن تقول أنا إشتراكي ولكن الضير هو أن تستورد الإشتراكية الشيوعية ولا ضير أن تقول أنا قومي ولكن الضير أن تستورد القومية الإشتراكية العالمانية. السلفية اليوم سلفيات كثيرة وصلت حد التناقض التام إذ هناك سلفية جهادية قوامها التكفير بالجملة للمسلمين ـ أو لفئات واسعة عريضة منهم ـ والتفجير بالجملة لأملاك المسلمين وغير المسلمين من المسالمين وهناك السلفية العلمية التي تعتبر المخلوع بن علي ـ وليس ذلك مثالا ولكن جد لي إذ من بعد رجوعي إلى تونس من بعد الثورة جاءني شاب علمت فيما بعد أنه رئيس التيار السلفي في تلك المدينة وقال لي أن بن علي ولي أمر ولا يجوز الخروج عليه. ظننت أن الرجل يمزح فقلت له وما حكم الثورة التي أطردته؟ قال : هي ثورة باطلة. عندها كدت أخر على وجهي لهول ما سمعت إذ كنت أقرأ ذلك ولكن لم أكن أصدقه وقديما قالت العرب : ليس من رأى كمن سمع. أجل. سمعت ثم رأيت رأي العين. ـ هناك سلفية إذن تعتبر المخلوع بن علي ـ صاحب خطة تجفيف منابع التدين ـ ولي أمر وأن الخروج عليه ـ أي الثورة عليه ـ أمرا باطلا دينيا. أي تناقض في هذه الجبة السلفية. ليت شعري من أصدق؟ وسلفيات أخرى كثيرة. المهم أن الذي يهمني ليس التسمي ولكن يهمني المضمون. يهمني منهاج

الفهم ومنهاج التنزيل. وفق تلك القاعدة أبني علاقتي. ولا يضيرني بعد ذلك أن تتدثر بأي دثار شئت إذ كم من مدع للوسطية وهو غارق في التقليد الأعمى حتى النخاع وكم من مدع للسلفية وهو مجدد محترف وفق قواعد التجديد الأصولي المعروفة. أما الموقف السياسي فهو واضح لا غبار عليه فيما أظن : التونسي الذي ينصر الثورة قدر الإستطاعة ولو بقلبه أو لسانه أو قلمه هو شريكي كائنا ما كانت الإختلافات العقدية معه والتونسي الذي يخذل الثورة بلسانه أو قلمه أو عمله فهو خصمي الألد ولا شأن لي بما تخفي الصدور. ذلك القانون أطبقه على السلفي أو على مدعي السلفية. مطالب الثورة واضحة معروفة : الحرية والكرامة والعدالة والقطع مع الماضي سياسات ورجالات ومؤسسات وعلاقات.

خير للسلفية أن تنتظم في أحزاب سياسية إذ أن ذلك بالتجربة يعرفها بالواقع ويجعلها في علاقة حميمية معه ومن يعافس الواقع مصلحا لا بد له أن يراجع كثيرا من أفكاره المسبقة عن الواقع وعن اللاعبين فيه. ذلك أمر جربناه في حركة النهضة. ليس هناك في تقديري المتواضع مدرسة يمكن أن تؤمها فتهطل عليك بشهادات عاليات في فقه الحياة ـ الذي هو مفتاح فقه الدين ـ مثل مدرسة الحياة. مدرسة الحياة تقتضي أن تنخرط في السياسة عملا ومقاومة ومجابهة وتحالفا وخصومة وليس مجرد إهتمام من فوق منبر أو على أريكة. لا يستوي اللاعب الذي يكابد الخصم ويحاول الفوز وينافس الزمان ويناور واللاعب الذي يجلس فوق المدارج يصفق لهذا أو يحزن لذاك ثم يتسلى وينصرف إلى بيته.

هما إذن سلفيتان في تونس : سلفية سياسية يتحدد الموقف منها بحسب ما أنف ذكره أي تحكيم ميزان الثورة فمن ملأه فهو الصديق الحميم ومن خذله فهو الخصم الألد. وسلفية فكرية يتحدد الموقف منها بشيء من الإزدواج. الشطر الأول عنوانه : لنكن مختلفين في الفروع والذيول أي تحت السقف فإذا إختلفنا إختلافا يهز البلاد أو يعرضها إلى الخطر أو ينصر أعداء المشروع الإسلامي والهوية العربية الإسلامية أو يخذل الثورة عندها نرجع إلى الميزان الأول أي تحكيم ميزان الثورة وذلك بسبب إرتفاع سورة الخلاف إلى مستوى الأساسات والقطعيات. الشطر الثاني عنوانه : دعونا من الأسماء وتعالوا إلى المسميات. دعونا نتواضع على أن الإسلام فهما وتنزيلا هو قضية مزدوجة. مزدوجة بين القرآن وبين الميزان. إذا تواضعنا على أنه لا بد لنا من كتاب ولا بد لنا من ميزان أي لا بد لنا منهما معا.. إذا تواضعنا على ذلك فنحن وإياكم لعلى هدى مبين. ولم يبق لنا سوى أن ندخل في التفاصيل والجزئيات والفروع والذيول فإن إتفقنا فبها ونعمت وإن إختلفنا فهو إختلاف رحمة وإختلاف تأويل وإختلاف سنني سببي طبيعي لا بد منه. هو إختلاف تكامل وتعاون وليس إختلاف تضاد وتخاصم.

أما السلفية المسماة جهادية وقوامها ـ مثل قوام تنظيم القاعدة ـ التكفير بالجملة والتفجير بالجملة ضد الأبرياء والمجرمين سواء بسواء .. تلك سلفية لا نقاومها إلا بمثل ما نقاوم أعدى الأعداء. ولكن قبل المقاومة لا بد من الحوار إن فاؤوا إليه.

الباب الثاني : إنشقاقات

ظلت وحدة الحركة في العموم محفوظة مصونة بمثل ما أشرت آنفا وبحسب تصوري لقضية الوحدة في الكيانات الدعوية والسياسية. ولكن ذلك لا يعني أنه لم يخرج من الحركة أحد ولا خرج عليها أحد. لا بل خرج منها كثيرون وخرج عليها كذلك كثيرون.

إنشقاق تقدمي يساري على أساس فكري.

أول خروج كان لمجموعة اليسار الإسلامي أو الإسلاميين التقدميين بزعامة رجلين كانا من رموز الحركة وهما : الدكتور إحميدة النيفر الذي كان رمزا فكريا ودعويا في المساجد والصحفي المعروف صلاح الدين الجورشي الذي تولى رئاسة تحرير لسان الحركة (أي المعرفة) لسنوات. كان خروجهم لإختلاف فكري واضح لا لبس فيه. كان الخلاف معهم على العلاقة بين النص الديني والواقع أو المصلحة. أنتجوا مجلة عمرت لمدة غير قصيرة إسمها : 15-21. في إشارة إلى القرن الخامس عشر هجري والقرن الواحد والعشرين ميلادي. سرعان ما شب الخلاف وخرج الجماعة عن الحركة وخرج الخلاف إلى خارج الحركة ولكنه كان نخبويا جدا ومازال نخبويا جدا إذ أن هذه القضايا هي أصولية فقهية وتلامس قضايا أخرى تاريخية وكلامية. إلتحق بهم من بعد ذلك بعض الرجال(منهم محمد القوماني على سبيل الذكر لا الحصر) ولكن ظل عددهم صغيرا وفي وقت من الأوقات أنتجوا كذلك ورقة مضمونية هي بمثابة الرؤية الفكرية والمنهاج الأصولي لتيارهم الجديد في تونس ولكنه لم يكن جديدا في العالم إذ هم سلائل مجلة إسلامية دولية معروفة يديرها الدكتور محمد فتحي عثمان أول من قال تقريبا باليسار الإسلامي في رد على جماعة الإخوان وغيرها ممن يرى أنهم لازموا اليمين شيئا ما إما فكريا أو سياسيا. وبذلك إنشغلت الحركة بهذا الموضوع وأولته أهمية كبيرة وكان باعثا قويا على تجديد أسطولها الفكري وجهازها الثقافي.

إنشقاقات فردية ثقيلة :

إنشق نجيب العياري وكان عامل منطقة تونس الكبرى ولكن الرجل طوح بعيدا عندما إتهم الغنوشي بأكل أموال الجماعة بالباطل وظل يكتب ذلك على جريدة الرأي في عام 1983 على ما أظن. ثم إنتمى الرجل إلى حركة المستيري. كما خرج من الحركة رمز آخر ذو وزن علمي كبير وهو الدكتور شمس الدين بن حمودة وكان نائبا للأمين العام حمادي الجبالي سنوات 1982 و 1983 وهو أول رجل في العالم العربي يقدم أطروحة الدكتوراة ـ مجال الطب النفسي ـ باللغة العربية في موضوع الماليخوليا وهو المرض النفسي المعروف بالغة الفرنسية (لا ميلانكولي). كان خروجه في إثر إنكشاف مكتب حمادي عام 1983 ثم إنتمى الرجل إلى الحزب الإشتراكي الدستوري وربما إحتل فيه منصبا قياديا بارزا وربما يكون مكرها على ذلك والله أعلم.

تجميد وضعية :

أي من لدن الثلاثي القيادي المعروف في بيان 7 مارس 1991 أي مورو وبن عيسى والفاضل ومن تبعهم من بعد ذلك ممن أشرت إلى بعضهم .. ذلك التجميد لم يعد ذا موضوع بعد رجوع أصحابه كلهم تقريبا إلى الحركة وإلى مؤسساتها القيادية المسؤولة. ولمن أراد أن يعتبره إنشقاقا فله ذلك.

إنشقاقات فردية عابثة :

إنشقاق الهاشمي الحامدي عام 1992 وهو أسوأ إنشقاق إذ سفه الرجل ماضيه بأسره عندما إنضم إلى قافلة الأكاديميين من أصحاب شهادة الدكتوراة من خلال أطروحة باللغة الإنجليزية إسمها كما أشرت آنفا : تسييس الإسلام : حركة النهضة نموذجا. ثم جاء إنشقاق جماعة لزهر عبعاب وهم ثلاثة في المقدمة. وأما من شملته قائمة عبعاب فلا يعدون في الجملة سوى رجالا يريدون تسوية أوضاعهم الإدارية والأمنية لقضاء مآربهم في تونس من بعد ما حيل بينهم وبينها لعقدين كاملين.محل العبث هنا موضع واحد لا ثاني له : أي منشق يضع يده في يد المخلوع بن علي هو عابث ولا أجد أي تعبير آخر أدنى إلى الحرمة.

إنشقاق شيعي :

إنشقاق أحد الأوائل وكان مشاركا في خلية الثمانين في مسجد سوسة عام 1973 وهو التيجاني السماوي الذي أصبح شيعيا فيما بعد ومثله من بعد ذلك مبارك بعداش الذي كان يلتقينا في السنوات الأولى في مدنين (1977 وما بعدها) ثم سمعته بأذني هاتين يقول عن الأم العظيمة الكريمة الطيبة عائشة عليها الرضوان .. يقول كلمة لا يسمح المرء لنفسه حتى بتسجيلها هنا ولا حتى بلسانه إرتجالا لفرط فحاشتها.

إنشقاق سياسي على أساس فكري.

هنا كذلك لا بد من تسجيل إنشقاقين ولو تجوزا وهما إنشقاق بعض من مجموعة الحبيب الضاوي الذين هجموا على مصرف بصفاقس عام 1985 ولا يتجاوز بالتأكيد أقصى إرتباط تنظيمي بين الحركة وبين أحد هؤلاء أن يكون أحدهم عضوا في الحركة (يسمى في ذلك الوقت ملتزما) أو منتميا للتنظيم في إحدى درجتيه السفليين. ثم إنشقاق آخر في أواسط تسعينيات القرن الميلادي المنصرم وهو على يد الحراثي (ربما يكون إسمه الطاهر) الذي أنشأ حركة سماها (الفيت) أي على وزن (الفيس) الجزائرية وظل يدعو إلى إعتماد الحل الأمني العكسري العنيف ضد نظام المخلوع بتأثر واضح في تلك الأيام من " موضة " العصر أي توخي القتال المسلح بدل الديمقراطية والكفاح المدني السلمي. إرتباط الحراثي بالحركة لا يتجاوز العضوية في أحسن الأحوال كذلك ولكن الرجل ساعدته الظروف المخيمة يومها على الترويج لفكرته وإحداث التفاعل الإيجابي والتعاطف إذ زارنا في ميونيخ الألمانية في تلك الأيام وكان الحوار معه مفيدا وشيقا.

حرصت ـ كما ترى هنا ـ على إيراد أي إنشقاق عرفته أو علمت به لأن ذلك تاريخ من ناحية ولا بد حيال التاريخ من لزوم الوفاء ومن ناحية أخرى لقناعتي بأن الإنشقاق عن الحركة أمر لها وليس عليها كلما كانت الوحدة العامة محفوظة من جهة وكلما كان الإنشقاق مفسرا مفهوما معلومة أسبابه من جهة أخرى.

ومعلوم أن الإنشقاق أمر متاح في حركة ديمقراطية لا تحتكر الإسلام ولا تحتكر رؤية محددة له تكفر من لا يقول بها أو تخون من لا يوافقها في خطتها السياسية. للحركة بابان : يدخل منه من يشاء وفق نظام معروف ويخرج منها من يشاء وفق نظام لا قيد عليه إلا قيد الخلق الكريم الطيب.

الراسخ عندي حتى اليوم أن محن العسر لا تصنع الإنشقاقات في العادة وإنما تصنعها محن اليسر التي نقبل عليها أو تقبل هي علينا والله أعلم. والراسخ عندي كذلك أن الوحدة العامة للحركة محفوظة مصونة في الجملة. لمن أعياه ذلك فليذهب إلى معيار المقارنة ليرى.

الباب الثالث : رجال ساهموا في صنع الحركة.

من أسمي ومن لا أسمي وعدد الرجال ـ والنساء ـ كثير كثير. لم يصنع الحركة رجل واحد ولا إمرأة واحدة ولكن الحركة صنيعة رجال كثيرين ونساء كثيرات وأحداث كثيرة مركبة معقدة. من أولئك ممن أذكر على سبيل الذكر وليس الحصر ولا حتى على سبيل التقديم لهذا أو التأخير لذاك.

قبل التطرق إلى أي إسم لا بد من رد الفضل الذي أجراه سبحانه على يد رجلين من رجال الزيتونة وهما : الشيخ محمد صالح النيفر والشيخ عبد القادر سلامة. ثم من أولئك : الشيخ راشد الغنوشي وخاصة بفكره الإجتهادي النافذ بسرعة ودقة إلى مساحات التجديد والتحديث إذ بذل الرجل مجهودات كبيرة وكثيرة في حل أعتى الإشكاليات الحضارية المطروحة اليوم أي الإسلام والغرب. الشيخ عبدالفتاح مورو سيما بتدينه التقليدي التونسي. القاضي صالح بن عبد الله البوغانمي. الدكتور أحميدة النيفر الذي تحول من بعد ذلك إلى اليسار الإسلامي. الفاضل البلدي. الدكتور صالح كركر عليه رحمة الله سبحانه. الدكتور عبد الرؤوف بولعابي. محمد شمام سيما بقدرته الفائقة على المسك الإداري والمالي. علي لعريض وحمادي الجبالي اللذين يجمعان بين قدرة فائقة في التسيير الإداري وبين عقل يبني نفسه بنفسه بناء منطقيا صارما. الشيخ محمد العكروت.محمد القلوي ذلك الذي كأنما ولدته أمه نقابيا بالسليقة. المرحوم لزهر مقداد. الدكتور عبد المجيد النجار سيما في أدائه الفكري عقديا وأصوليا.الدكتور الصادق شورو سيما في كونه مدرسة من الصبر والثبات بزت المدارس الغابرة والحاضرة. بن عيسى الدمني السائر على طريق الغنوشي في معانقة الإجتهاد والتحديث والتجديد. وقائمة أخرى طويلة من أسماء الرجال والنساء. قائمة هي الآن أمامي أحصيت فيها زهاء مائتين من أجيال التأسيس الأول منهم من قضى نحبة ومنهم من ينتظر. أولئك جميعا تكافلوا على صنع هذا الصرح الكبير. سوى أن ذكرهم

يحتاج إلى كراس مستقل. وآخرين لا نعلمهم الله يعلمهم. منهم شهداء ومنهم جنود خفاء وما أكثر جنود الخفاء في حركة فرضت عليها السرية التي هي قنطرة الأداء والعمل والإبداع والمقاومة في تلك الأيام.

الباب الرابع : مؤتمرات الحركة.

عقدت الحركة حتى اليوم : مارس 2013 تسعة مؤتمرات.

المؤتمر الأول التأسيسي عام 1979 في ضاحية منوبة وأثمر قانونا أساسيا جعل هدف الجماعة الإسلامية هو الدعوة إلى الإسلام.

المؤتمر الإستثنائي الأول عام 1981 من بعد إنكشاف ديسمبر 1980 وخطاب بورقيبة وذلك للنظر في الإستفتاء القاعدي الواسع جدا : هل نعلن عن الحركة أم نواصل السرية.

المؤتمر الثالث 1984 وهو إنتخابي وإذن بمواصلة مشروع الأولويات ومهامه.

المؤتمر الرابع 1986 وكان مضمونيا أثمر ورقات رسخت هوية الحركة وقد أشير إليها.

المؤتمر الخامس 1988 وكانت طبيعته سياسية للنظر في التعامل مع الوضع الجديد.

المؤتمر السادس 1995 وهو أول مؤتمر بالمهجر وهو كذلك مضموني وأسس للعمل خارج البلاد. ورفع شعار : العمل على العودة بالصحوة والحركة إلى البلاد. وأدار المعركة مع المخلوع بن علي حول طبيعة الحركة هل هي حركة مدنية سلمية كما تريد هي أم هي حركة إرهابية عنيفة كما يريد هو.

المؤتمر السابع 2001 قبيل الكارثة الكونية بأسابيع قليلة.

المؤتمر الثامن والأخير في المنفى عام 2007. وأهم ما فيه أن عملا إحيائيا في الداخل بدأ في الإشتغال رغم الظروف القاسية جدا وبذا بدأ تحقق : عودة الحركة إلى البلاد.

المؤتمر التاسع والأخير إلى حد الآن 2012 وهو أول مؤتمر من بعد الحصول على التأشيرة القانونية في الفاتح من مارس 2011 علني داخل البلاد.

الباب الخامس : رجال دافعوا عن حق الحركة في الوجود

لا يحق لزاعم أن يزعم الإحاطة بكل الرجال ـ ولا حتى المؤسسات والهيئات الداخلية والخارجيـــة ـ الذين إنبروا للدفاع عن الحركة أيام كانت تسام الخسف نكرانا لحقها الدستوري والطبيعي في الوجود. ذلك عمل يحتاج إلى كراس خاص به. ولكن حسبي في هذا الكراس الإشارة إلى بعضهم ـ ولا أقول حتى أبرزهم ـ. ومن أولئك أذكر :

الشيخ محمد بالإخوة عليه رحمة الله سبحانه وهو رئيس أبرز قائمة مستقلة تدعمها الحركة في

تونس العاصمة في إنتخابات 2 أبريل 1989. والشيخ عبد الرحمان خليف أسد القيروان الذي تصدى لبورقيبة الذي دعا إلى إفطار رمضان.

عميد المحامين الأسبق المرحوم محمد شقرون وهو أحد وزراء بورقيبة الأوائل في حقيبة العدل. كان ذلك الرجل ـ عليه رحمة الله سبحانه ـ في محكمة أمن الدولة في صائفة 1987 يدافع عنا ويتكلم بضمير الجمع المخاطب فيقول مثلا : موقفنا من كذا كان كذا وهكذا.. ومن ورائه بطبيعة الحال جيش من المحامين تجندوا للدفاع عن الحركة في تلك الأيام العصيبة منهم المرحوم عبد الرحمان الهيلة وبلقاسم خميس وآخرون بالعشرات من تونس ومن مصر ومن أوربا. ومن قبل ذلك تجند 181 محاميا تونسيا لإصدار لائحة أسموها (لائحة المحامين) بتاريخ 14 ديسمبر من عام 1981 وهي لائحة وجهت من لدنهم إلى أعضاء مجلس النواب يشرحون فيها المظلمة المسلطة على الحركة في أثناء المحاكمة الأولى التي تعرضت لها قيادة الحركة أي في خريف العام ذاته 1981.

المرحوم حسيب بن عمار بصفته ناطقا بإسم المجلس الوطني للدفاع عن الحريات العامة وذلك في بيان بتاريخ 22 أوت 1981. وشخصيات أخرى كثيرة منها المحامي فتحي عبيد والمحامي عبد الوهاب الباهي بصفته الكاتب العام لجمعية المحامين الشبان وكذلك رئيسها في ذلك الوقت الأستاذ محمد لمكشر.

منظمات وأحزاب كثيرة منها على سبيل الذكر لا الحصر : حركة الوحدة الشعبية وحركة الديمقراطيين الإشتراكيين والرابطة التونسية للدفاع عن حقوق الإنسان ومنظمة العامل التونسي ومنظمة العفو الدولية إلخ ..

الدكتور المنصف المرزوقي سيما بعد إنتخابه رئيسا للرابطة التونسية للدفاع عن حقوق الإنسان مما كلفه الذي كلفه من بعد ذلك. ومن أولئك كذلك محمد المصمودي وزير بورقيبة الأسبق للخارجية لسنوات طويلات. ورجال آخرون ونساء لا أحصيهم ولا أظن أن أحدا يحصيهم سوى ربك سبحانه منهم المحامية راضية النصراوي التي فتك بمكتبها مرات ومرات لأجل ذلك.

الباب السادس : شهداء الحركة وبعض من فقدائها

وبمثل ذلك فإن إحصاء الشهداء الذين ربا عددهم عن الخمسين ليس باليسير كذلك وأذكر منهم ما تيسر لي والأمر ذاته ينطبق على الذين فارقونا إلى ربهم سبحانه.

أول شهداء الحركة هو الهادي المحضاوي (1) من مدنين في أثناء الإحتجاجات التلمذية الشهيرة في خريف عام 1981 ضد محاكمة قيادة الحركة. ثم توالت قافلة الشهداء لتشمل كل من : عثمان بن محمود (2) وزهرة التيس (3) والشابين اللذين أعدما في أواخر عام 1987 أي محرز بودقة (4) وبولبابة دخيل(5) والرائد المنصوري(6) وإبراهيم الخياري(7) وصلاح الدين

باباي(8) والمبروك الزمزمي(9) وطارق الزيتوني(10) وإبراهيم عبد الواحد(11) وسمير طالش(12) وعبد العزيز المحواشي (13) وعبد الرزاق سعيد (14) وأحمد العمري (15) وبوبكر الغباي(16) وعدنان سعيد(17) والمبروك رتيمة(18) وعبد العرؤوف لعريبي(19) وعامش دقاش (20) وعبد الوهاب العبدلي (21) وفتحي الخياري (22) وجمال الزموري(23) ومحمد فتحي الزريبي (24) ومحمد الهادي النيغاوي(25) ومصطفى بن حسين(26) وفيصل بركات(27) ورشيد الشامخي (28) وإسماعيل خميرة(29) وعز الدين بن عائشة(30) وسحنون الجوهري(31) وعبد القادر لخضر(32) والمولدي بن عمر(33) والشيخ المبروك زرن(34) وعلي بوزوير(35) ورضا الخميري(36) والتيجاني الدريدي(37) ومصطفى الحجلاوي(38) وعبد الواحد العبدلي(39) وعبد القادر الصويعي (40) والمنصف زروق (41) وكمال المطماطي (42) الهاشمي المكي (43)

مما لا بد من ملاحظته هنا أن كل الشهداء ـ ممن ذكر وممن لم يذكر ـ قضى في عهد المخلوع بن علي إلا : الهادي المحضاوي وزهرة التيس وعثمان بن محمود ومحرز بودقة وبولبابة دخيل والمنصف زروق

كما فقدت الحركة كثيرا من رجالها ومن هؤلاء ذكرا لا حصرا : الشيخين المجاهدين الكبيرين محمد صالح النيفر وعبد القادر سلامة وعلي نوير وضو صويد والدكتور صالح كركر ولزهر مقداد والهادي الحاجي (وكلهم من المؤسسين الأوائل) والبطل الرياضي الدولي المنصف الورغي..

وبمثل ذلك فإن إحصاء الذين تعرضوا لإعاقات بدنية مستديمة غير متيسر لكثرتهم ولعدم وجود إحصائية فيهم وأذكر منهم : لسعد الجوهري (شقيق الشهيد سحنون) الذي لا تفارقه منسأته و بوبكر القلالي الذي فقد إحدى عينيه بالكامل في الهجوم البربري ضد الجامعة التونسية في محرقة ماي 1991. وآخرون كثر.

ولعل أكثر مناضل تعرض إلى الإبعاد والنفي وفرض الإقامة الجبرية بعيدا عن أهله في وطنه ولسنوات طويلات هو عبد الله الزواري. ولكن الذين فرضت عليهم الإقامات الإدارية الجبرية أو أكرهوا على التوقيع مرات ومرات في اليوم الواحد لدى مخافر البوليس أو منعوا من إكتساب القوت الحلال حتى باعة فوق الأرصفة .. أولئك لا يحصيهم حاص.

كما تعرضت المرأة إلى السجن وإلى التطليق القسري وقد مر بنا شيء من ذلك في الكراس من مثل (سعاد الشربطي و رشيدة المطماطي و زوج عمر الجليلطي وزوج عبد الله الهمامي وسميرة بن صالح وغيرهن كثيرات).

الباب السابع : ضبط تاريخي سردي جامع لما ورد في الكراس

المقصود من هذا الباب هو حصر مختلف المحطات التاريخية للبلاد وللحركة وما يتعلق بهما من قريب أو من بعيد في المحيط الإقليمي والعربي والدولي وذلك بقصد مساعدة القارئ الكريم على

مقاومة التشتت وإستجماع التركيز في نهاية هذا العمل.

<> 29 هج بداية الفتح الإسلامي لتونس

<> 50 هج تأسيس القيروان

<> 78 هج الإذن ببناء الزيتونة لتتوسع عام 114هج

<> 303 هج بناء المهدية

<> 668 هج الحملة الصليبية (حملة الفرنجة بالأحرى)

<> 981 هج تحرير العثمانيين البلاد من الإسبان

<> 1864 م مشروع خيرالدين التونسي الإصلاحي

<> 1881 م إنتصاب الإحتلال الفرنسي بمقتضى معاهدة بادرو.

<> 1897 م مؤتمر بازل الشهير ووعد بوطن قومي لليهود في فلسطين

<> 1920 م نشوء الحزب الحر الدستوري على يد الثعالبي

<> 1924 م سقوط الخلافة العثمانية وإنهيار الوحدة الإسلامية السياسية لأول مرة.

<> 1928 م تأسس جماعة الإخوان المسلمين في مصر

<> 1929 م أزمة مالية دولية معروفة تسمى بأزمة 29

<> 1934 م إنقلاب بورقيبة ضد الثعالبي وتأسيس الحزب الإشتراكي الدستوري في قصرهلال

<> 1938 م إنتفاضة إحتجاجية ضد الإحتلال

<> 1945 م إغتيال الشهيد فرحات حشاد وفي العالم إنتهاء الحرب العالمية الثانية وبداية الحرب الباردة بين قطبي القيادة الدولية حتى إنهيار القطب الشرقي 1989

<> 1946 م تأسيس الإتحاد العام التونسي للشغل

<> 1948 م إحتلال فلسطين وفاء بوعد مؤتمر بازل

<> 1952 م إنتفاضة إحتجاجية ضد الإحتلال وصعود عبدالناصر في الشرق

<> 1955 م عودة بورقيبة من برج (لا بوف) أي برج الخضراء في أقصى الجنوب

<> 1956 م إعلان الإستقلال التام في 20 مارس

<> 1957 م إعلان الجمهورية وإنتخاب بورقيبة رئيسا للبلاد

<> 1958 م إنجاز مجلة الأحوال الشخصية

<> 1959 م صدور قانون الجمعيات المقيد للحريات وصدور أول دستور للبلاد

<> 1961 م إغلاق جامع الزيتونة وإعدام الشيخ الرحموني وإلغاء الأحباس والقضاء الشرعي وإغتيال بن يوسف وبداية تنفيذ المشروع الإلحاقي الكبير. والشيخان النيفر وسلامة يصدران المعرفة ليصادرها بورقيبة لمدة عشر سنوات بسبب قضية الرؤية

<> 1965 م بعث منظمة التحرير الفلسطينية وبورقيبة يدعو من أريحا إلى التقسيم

<> 1966م إعدام سيد قطب في مصر

<> 1967 م نكسة حربية ثقيلة في الشرق

<> 1969 م تجربة التعاضد الإشتراكية لبن صالح و تصريح الهرماسي حول اللائكية والتدين ورجوع الغنوشي إلى تونس وإنقلاب القذافي ضد السنوسي في ليبيا وبداية عمل إسلامي في تونس

<> 1970 م موت عبد الناصر

<> 1971 م مجيئ المرحوم الهادي نويرة وزيرا أول من بعد إعفاء الباهي الأدغم وإختيار السادات رئيسا لمصر وإنفراج كبير في العلاقة مع الإخوان

<> 1972 م صدور قانون أفريل 1972 الجائر المعروف وعودة الشيخ النيفر من الجزائر

<> 1973 م حرب العبور بقيادة سعد الدين الشادلي وتطور في العمل الإسلامي في تونس

<> 1974 م وحدة إندماجية تونسية ليبية تفشل في جربة

<> 1975 م بورقيبة يفرض نفسه رئيسا مدى الحياة وخروج ثلة من الليبراليين

<> 1977 م تأسيس الرابطة التونسية للدفاع عن حقوق الإنسان

<> 1978 م الخميس الأسود في 26 جانفي ومحاكمة الإتحاد بقيادة المرحوم عاشور وفي المشرق حصول كارثة إسطبل داود بين السادات والكيان الغاصب وتجميد عضوية مصر من الجامعة العربية ونقلها إلى تونس مؤقتا

<> 1979 م أول مؤتمر للجماعة الإسلامية وصدور المجتمع بدلا عن المعرفة وبداية تبلور للتيار التقدمي (اليسار الإسلامي في تونس) وزيارة الغنوشي إلى السودان وتأثر بتجربة المرأة وثورة إيران

<> 1980 م محاولة القذافي الإنقلاب ضد قفصة وسقوط نويرة ومجيء المرحوم مزالي ولقاء

الغنوشي بالمرحوم التلمساني وتصريح شهير جدا وجريء جدا للمجتمع الكويتية وحصول أول إنكشاف لتنظيم الحركة وندوة فكرية كبيرة عن الملكية الزراعية في إثر أحداث الإتحاد

<> 1981 م أول مؤتمر إستثنائي وقرار بالإعلان وإحتجاز عميد كلية العلوم وتصريح بورقيبة بأنه لا مانع من التعددية الحزبية تحت سقف الدستور وفي المشرق إغتيال السادات ومؤتمر صحفي للحركة وتقديم أول مطلب تأشيرة ومصادرة جريدة الحبيب من بعد تجربتين مصادرتين هما المعرفة والمجتمع ورفع الحظر عن الحزب الشيوعي منذ 1920 وحملة إعتقالات في صفوف قيادة الإتجاه الإسلامي ومحاكمة لزهاء مائة منهم وصدور منشور 108 وإنتخابات تشريعية تفوز بها حركة المستيري ثم تزور وإندلاع أكبر حركة إحتجاجية تلمذية في البلاد

<> 1982 م الحركة ترمم مؤسساتها وتكلف الفاضل البلدي بقيادتها ثم يهاجر بسبب الخناق المشدد عليه وتنصرم حبال القيادة من جديد ليتولاها حمادي الجبالي من بعد ذلك وإنطلاق مشروع الأولويات وفي الجامعة ينقض " الرفاق " ضد الإسلاميين في منوبة في محرقة مشهودة

وفي الشرق هجوم شارون الكاسح ضد صبرا وشاتيلا وإجبار المنظمة وقيادتها على اللجوء إلى تونس

<> 1983 م يبدأ العام بإنكشاف مكتب حمادي والقيادة الطلابية كلها وإعتقالات ومحاكمات وينتهي بثورة الخبز الشهيرة التي تنتهي بتراجع بورقيبة وإعتقال لعشرات من مناضلي الحركة وإنفتاح إعلامي كبير " يفرضه " الليبراليون وتستغله المعارضة من خلال الرأي خاصة وإعلان الحركة عن أكثر من مكتب إعلامي في مناسبات مختلفة وخروج الشيخ مورو من السجن

<> 1984 م خروج مساجين الحركة بعفو رئاسي وعرض مرفوض من مزالي بالتخلي عن الصفة السياسية في مقابل جمعية ثقافية (يشهد اللقاء الغنوشي ومورو والجبالي) وعقد ثالث مؤتمر للحركة

<> 1985 م تأسيس الإتحاد العام التونسي للطلبة وطرد القذافي للعمالة التونسية وهجمة شرسة أخرى على إتحاد الشغل وبعث نقابة ضرار هي الإتحاد الوطني بزعامة بوراوي وبروز أول ظاهرة إسلامية جهادية على يد ثلة منهم الحبيب الضاوي في صورة هجوم مسلح على مصرف وإعدام الضاوي من بعد ذلك

<> 1986 م إغتيال أبي جهاد في وضح النهار في حمام الشط من الموساد الإسرائيلي وإنجاز أول مؤتمر مضموني معمق للحركة وإنتاج الرؤية الفكرية والمنهاج الأصولي والإستراتيجية المؤقتة للإصلاح والتغيير وقبل ذلك إغتيال الطالب عثمان بن محمود وحصول ثاني أكبر إنكشاف لأرشيف الحركة في الزهروني وفرض الرقابة اللصيقة جدا على رئيس الحركة العائد إلى التدريس في المساجد لأول مرة من بعد إنقطاع دام زهاء خمس سنوات

<> 1987 م بداية أعتى حملة إعتقالات بدء برئيس الحركة حتى تشمل زهاء 10 آلاف

ومظاهرة بأكثر من 10 آلاف في 23 أبريل وإحالة القيادة على أمن الدولة ومظاهرة أخرى بالحجم نفسه في أوت وصدور أحكام بالإعدام الذي نفذ في موقوفين ثم إنقلاب المخلوع بن علي ضد بورقيبة. وفي الشرق تتأسس حركة حماس ليكون لها من بعد ذلك شأن كبير.

<> 1988 بداية خروج المساجين على دفعات وإنجاز المؤتمر الخامس وخروج الغنوشي من السجن وتصريح إيجابي في خصوص مجلة الأحوال الشخصية وصدور قانون المساجد 29 وتعيين الشيخ مورو في المجلس الإسلامي الأعلى

<> 1989 م خروج كل المساجين بما فيهم المجموعة الأمنية وتزوير لإنتخابات 2 أفريل التي فازت فيها القوائم المستقلة المساندة للحركة وتوقيع الحركة بإسم البحيري على الميثاق الوطني وتغيير إسم الحركة (من الإتجاه الإسلامي إلى النهضة) ومطلب تأشيرة جديد وإنكشاف خطة تجفيف المنابع وبيان 2 أكتوبر المطالب لأول مرة في التاريخ العربي بإستقالة وزير (محمد الشرفي) ومعارك منها معركة المساجد والمطرودين والجامعة (الإصلاح الهيكلي والتجنيد) والترخيص القانوني لإتحاد الطلبة وصدور الفجر لأول مرة ومؤتمر إتحاد الشغل من بعد عزل عاشور. وفي الجنوب إنقلاب الجبهة الإسلامية بقيادة الترابي ضد النظام وفي شرق الأرض إندثار الدب الروسي بطعنات القلاسنوست والبروسترويكا على يد آخر رئيس أي قورباتشوف

<> 1990 م بداية تلبد السحب في العلاقة مع نظام المخلوع وإعتقالات بالجملة في آخر العام لقيادات الصف الأول ومؤتمر إتحاد الطلبة وفي الشرق سقوط جدار برلين وحرب الخليج في إثر إجتياح الكويت وفي الجزائر زلزال الفيس في البلديات وإنطلاق صفارات الإنذار الدولية

<> 1991 م إنطلاق أشرس حملة إستئصالية ضد الحركة وضد مظاهر الإسلام وضد كل نفس حر في البلاد ليسجن من يسجن ويفر من يفر ويقضي من يقضي ودبابة المخلوع بن علي تدك الجامعة في محرقة مشهودة (8 ماي) والحركة تعلن عن كل مكاتبها المركزية والجهوية لأول مرة عضوا عضوا وتجميد عضويات قيادية في بيان 7 مارس وعضويات أخرى ستلحق بها. وفي الشرق يكون مؤتمر مدريد لتصفية القضية الأم من بعد إنزياح القطب الشرقي. وفي الجزائر إلغاء نتائج الإنتخابات لتدخل البلاد في أعتى محنة تكاد تمزقها

<> 1992 م إنتصاب المحكمة العسكرية لمقاضاة مئات من قيادات الحركة ومناضليها وأحكام بالمؤبد وأخرى ثقيلة جدا. وفي الخارج يتداعى الفارون إلى ندوة لإستئناف عمل الحركة. وتجميد الرابطة أن تعقد مؤتمرها في معركة لي ذراع بين المرزوقي والمخلوع بن علي.

<> 1993 م ستظل رحى التعذيب في السجون دائرة حتى 1997 ويظل السجن الأكبر محرقة لا تدع شاردة ولا واردة وتموت السياسة بالكلية ويترجل الشيخ محمد الصالح النيفر وتظهر جريدة المتوسط من باريس تجربة أخرى من بعد المعرفة والمجتمع والحبيب والفجر وفي الشرق تجد نكبة أوسلو لتعفن الجرح النازف في القضية الأم

<> 1994 م يترجل نصير آخر للإسلام في تونس هو الشيخ محمد بالأخوة وتصدر تونس

الشهيدة تجربة أخرى من بعد توقف المتوسط والمخلوع بن علي يروج لفضيحة فوزه بالتسعات الأربع لتكون محل سخرية دولية. وفي الشرق تجد ثالثة الأثافي بمعاهدة وادي عربة ليكون الكيان الغاصب مؤمن الحدود مع مصر ومع الأردن ومع المتوسط ويضيق الخناق على المقاومة.

<> 1995 م يعقد أول مؤتمر للحركة في المهجر ـ المؤتمر السادس ـ وتنطلق أشغال الحركة إغاثيا وحقوقيا وإعلاميا وتنظيميا لإطفاء المحرقة الناشبة في البلاد وإستعادة الصفة السلمية. وفي الشرق تدق طبول الحرب ضد البلقان والجمهوريات الإسلامية المستقلة لتوها من الشيوعية.

<> 1996 م بداية فوحان قذر للملف الحقوقي للمخلوع بن علي ومحاولة لتبييضه بزيارة إلى فرنسا وألمانيا ولكن يمنى بالفشل الذريع أمام الإحتجاجات التي تستقبله وطرقات الصحافة الأروبية. وفي آخر العام تنطلق قناة الجزيرة ليكون لها شأن كبير جدا ولتخرق الصمت العربي وتشغل الناس. ثم يندلع البث الفضائي ليكسر جدار برلين في تونس

<> 1997 م قتامة الملف الحقوقي يثمر بداية خروج عائلات المشردين

<> 1998 م المفكر الفلسطيني عزام التميمي يتحصل على الدكتوراة في بريطانيا على أطروحة (الفكر السياسي عند الغنوشي). وفي تونس يتأسس المجلس الوطني للحريات. المخلوع بن علي يلتقي الهاشمي الحامدي في مؤامرة لشق صف الحركة في المهجر بعدما عجز عنه في الداخل وذلك بإسم المصالحة الفردية أو العفو الفردي ثم تموت العملية في مهدها أو تكاد.

<> 1999 م ظهور رئيس الحركة مع الهاشمي الحامدي لأول مرة على قناة الجزيرة في برنامج الإتجاه المعاكس وتعريب الحامدي للمخلوع بن علي وأداء جيد لرئيس الحركة. وبداية ثقب واسع وواعد في جدار برلين التونسي. وفي هذا العام يرحل مقاوم وطني كبير هو الحبيب عاشور. وأول إطلاق سراح موسع يشمل زهاء 600 سجين من مناضلي النهضة.

<> 2000 م بداية صحوة دينية واعدة في تونس تثمرها الفضائيات المشرقية لتصفع خطة تجفيف المنابع وبدايات تحسين لبعض الأوضاع السجنية من بعد خوض إضرابات جوع طويلة ومضنية وإنتشار الإعلام الإلكتروني الذي سيتكافل مع الإعلامي الفضائي ثم الفايس بوك ومن قبل ذلك البالتولك والمسنجر وغيرها .. لتقويض جدار برلين في تونس بالكلمة.

<> 2001 م مؤتمر مهم جدا في جنوب إفريقيا يعتبر الصهيونية حركة عنصرية ترد عليه أمريكا الغاضبة وربيبتها الغاصبة بكارثة 11 سبتمبر وقبل ذلك بشهور قليلات تعقد الحركة مؤتمرها السابع وإشاعة مناخ من البهتة والخوف في إثر تلك الكارثة وبداية بث فضائي للحركة بتجربة الزيتونة التي لا تعمر إلا قليلا جدا

<> 2002 م بداية خروج بعض قيادات الصف الأول من السجن وبدايات جرأة على رموز سلطة المخلوع بن علي وفي المشرق زلزال ديمقراطي يقوده حزب العدالة والتنمية التركي بقيادة رجب الطيب أردوغان وبداية عهد جديد على أنقاض أعتى عالمانية إسلامية شديدة التطرف.

<> 2005 م بداية أفول الخط البياني للمخلوع بن علي في إثر إضراب جوع ناجح ينظمه سياسيون وحقوقيون بمناسبة مؤتمر الإعلامية المنعقد في تونس ويثمر هيئة 18 أكتوبر للحقوق والحريات في أول لقاء إسلامي عالماني من بعد عقد ونصف من سنوات الجمر الحامية جدا.

<> 2007 م تعقد الحركة آخر مؤتمر لها في المنفى وتسلم الأمانة السياسية لأهلها في الداخل وشعور يغشانا جميعا بأننا في نهاية مرحلة لا ندري ما نهايتها. وهو المؤتمر الثامن.

<> 2008 م بداية الإنتفاضات ضد نظام المخلوع بدء من الحوض المنجمي الذي سرع وتيرة العصيان والتململ من بعدما زكمت الأنوف شرقا وغربا بسياسات النهب والسلب التي تمارسها ليلي بن علي زوج المخلوع على أوسع نطاق ممكن وبتبرج زائد وإستخفاف أكبر. وفي الأرض المحتلة فلسطين يسجل المقاومون في غزة العزة صمودا أسطوريا بطوليا خالدا في وجه أعتى محرقة تسلطها الصهيونية حمما محمومة على إمتداد 50 يوما جوا وأرضا وبحرا.

<> 2009 م تأسيس المنظمة الدولية للمهجرين التونسيين في جنيف بتكافل من لدن عدد كبير من المعارضين التونسيين في المنفى ونورالدين الختروشي ينتخب رئيسا للمنظمة

<> 2010 م إنتفاضة أخرى في بنقردان وفي آخر العام ذاته (17 ديسمبر) تجتمع كلمة التونسيين لأول مرة حول مطلب الإطاحة برمز السلب والنهب لتكون ثورة الحرية والكرامة وينجحون في طرده من بعد 23 يوما فحسب أي يوم الجمعة 14 جانفي 2011. ثم نتتهي الأسطورة المفزعة لتتهيأ البلاد إلى معانقة مناخات النهضة والكرامة والسؤدد. وتنداح الثورات العربية لتشمل ليبيا ومصر واليمن وهي اليوم تخوض أشرس معركة مع السفاح المجرم بشار الأسد في سوريا وهي لمنتصرة نصرا مبينا في الأسابيع المقبلة بإذنه سبحانه

المحور الرابع : كلمة الختام

التأريخ ـ سيما قراءة ـ حق علي وحق للحركة وحق للناس وحق للأجيال الجديدة سواء من إنتظم في سلك الحركة أو من يأتي لتقليب ورقات مهمة في التاريخ التونسي الحديث بل في تاريخ الصحوة الإسلامية الحديثة والحركة الإسلامية المعاصرة. حق لم أخط فيه كلمة واحدة وظلت الأفكار تتهاطل علي وتلح إلحاحا عجيبا حتى أذن به سبحانه لعله يرى النور في المدة القريبة القادمة. لم أهتد حتى اليوم إلى منهاج في التأليف في هذا الموضوع أقضي فيه وطري. ربما يكون هذا الكراس باعثا على المواصلة. التجربة غنية جدا وثرية جدا. هي خصبة بمواضع الإصابة والخطإ سواء بسواء. ولكني ألح على نفسي إلحاحا عجيبا ـ وعلى من يقبل نصيحتي ـ أن يدون الذي يدون بمنهاج واضح جلي إسمه : قراءة التجربة وليس الغوص في تأريخياتها السردية لأن ذلك منهاج لا ينتهي ولا كذلك الخوض في نقد هذا الجانب فيها أو تثمين ذاك. ما يحتاجه القارئ المهتم ـ لا بل ما يحتاجه التدوين التاريخي ـ هو كراس في قراءة التجربة بمعطياتها الداخلية وظروفها الخارجية.

حمّلت نفسي في المقدمة من هذا الكراس الحفر عن القوانين الإجتماعية التي خضعت لها تجربة الحركة. كان ذلك أملي. لست أدري هل أصبت من ذلك شيئا أم لا. شعرت وأنا أخوض في التجربة أن إلتزام ذلك المنهاج الذي يجب أن يفضي إلى إستنباط القوانين الإجتماعية عسير. أتردد أحيانا بين المضي في السرد التاريخي أو في بيان المناخات المحيطة وبين العودة إلى قراءة التجربة لعلي أظفر بقانون إجتماعي كان هو المسؤول عن نجاح هنا أو إخفاق هناك.

أترك ذلك للقارئ وحتى أكون صريحا مع إخواني القراء. لا أترك ذلك لكل من هب ودب من القراء. لست زعيما سياسيا أبحث عن شهرة أو عن رضى هذا لينتخبني أو يعيد إنتخابي. ولست أزاول التملق في هذا الكراس لأحد ـ والله وحده شهيد على ذلك وهو حسبي ـ. لست بصدد الدعوة إلى الحركة في هذا الكراس ولا بصدد التنفير عنها. ولكني أبذل جهدي في قراءة التجربة. ربما أصبت وربما أخطأت وربما جمعت بين الإصابة وبين الخطإ وهو المرقوب. ولكن القارئ الذي أستأمنه ذلك ليس هو كل من هب ودب من القراء.لا. بل هو القارئ الذي يعرف الحركة من قريب جدا أو منحه الله سبحانه ذكاء وقادا جدا على نحو أنه إذا توفر له من تاريخها الذي توفر مما لا بد منه فهو مؤهل لإستنباط قراءة هادئة تكشف عن القوانين الإجتماعية التي أبحث عنها أنا في هذا الكراس. هو القارئ الذي ينشغل ـ مثلي وقد أكون ممن إنشغل ولكنه لم ينجز من إنشغاله شيئا ـ بمحاولة إستنباط القوانين الإجتماعية. هي أهم شيء عندي في قراءة التجارب لأني أعتقد أن التجارب البشرية محكومة بقوانين إجتماعية وكونية ولكن الظواهر الإجتماعية المعقدة المركبة ـ مثل حركة النهضة ـ محكومة بقوانين إجتماعية بالأحرى والأولى وليست محكومة بقوانين كونية إلا من باب التبعية لإختلاف الحقل هنا بين القوانين الإجتماعية وبين القوانين الكونية.

قد لا تكون الأفكار مرتبة هنا ترتيبا مفهوما أو مقبولا. قد يلفى القارئ كذلك خلطا في بعض التأريخات ولكن لا أظن أنه يتجاوز عاما أو عامين. أشعر وأنا أخوض قراءة التجربة أني مشدود إلى أمور كثيرة منها القيادات التي صنعت التجربة سيما في لحظاتها الأولى ولا ريب في أن صناعة اللحظات الأولى تبقى بصماتها حية إذ الأمر لا يختلف كثيرا عن التطعيمات الوقائية الطبية أو عن الغشيان لأجل الحبالة. ومنها مواقف ومشاهد لا تحصى تزدحم في إزدحاما عجيبا. الحاصل من كل ذلك هو أن قيادة مثل هذه القراءات في مثل هذه الحقل الثري الخصب بمنوال منهاجي مثل الذي إخترته لكراسي .. هي قيادة عسيرة وغير مأمونة العواقب. يخترمك شعور شبيه جدا بشعور سائق عربة في سوق شعبي مزدحم والعربة ذاتها لا تخلو من ركاب وحاجات وضرورات وخيارات.

وجب علي كذلك التنويه إلى أمر مهم وهو أن الذين ذكرتهم هنا إنما أذكرهم لضرورة التأريخ والقراءة سواء إتفقت معهم هنا أو إختلفت معهم هناك. لا أرب لي البتة في إقتناء خصومة مع أي واحد منهم وظني أني إلتزمت الأدب المطلوب معهم جميعا إلا أن يكون الأدب المطلوب هو طمس ذاكرتي أن تنبجس عما وقر فيها. بل إني أؤكد ـ والتاريخ بيننا ـ أني إقتصدت في ذكرهم إقتصادا ما بعده إقتصاد. لم أكفر أحدا ولم أخون أحدا ولم أرتق بأحد إلى درجة النبيين والصديقين. وما ينبغي لي ذلك البتة. ذلك مبلغي من العلم وهي شهادة حسبي أني وثقتها لألقى بها

ربي. إذا كان كراسي هذا باكورة قراءة هادئة متأنية متريثة في تجربة حركة النهضة التونسية فحسبه أنه سابق وليكن اللاحق خيرا منه إذ لا يضيرني ذلك البتة. تلك هي كلمة الختام لهذا الكراس. والله أسأل أن يجعله في ميزان حسناتي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. فإن لم تكن به حسنات فهو جهد المقل الذي يتزلف إلى مولاه ولي نعمته سبحانه بذلته بين يديه والذلة بين يديه تورث المستضعفين قوة لا تقاوم.

مراجع الكراس ومصادره

1 ـ من تجربة الحركة الإسلامية في تونس ـ إصدار المركز المغاربي للبحوث والترجمة 2001.

2 ـ مأساة مساجين الرأي في تونس من إصدار لجنة الدفاع عن المساجين السياسيين 2002.

3 ـ من الفكر الإسلامي بتونس من إصدار دار القلم للنشر والتوزيع بالكويت 1992

4 ـ رسالة دكتوراة للمفكر الفلسطيني المعروف عزام التميمي عن الفكر السياسي عند الغنوشي.

5 ـ مواطنون تحت الحصار من إصدار الجمعية الدولية لمساندة المساجين السياسيين 2010

6 ـ بورقيبة والإسلام : الزعامة والإمامة للطفي الحجي من إصدار دار الجنوب للنشر 2004

7 ـ صراع الهوية في تونس للدكتور عبد المجيد عمرالنجار دار الأمان للنشر 1988

8 ـ التطرف العالماني في مواجهة الإسلام : تونس وتركيا نموذجا للإمام القرضاوي 2001

9 ـ الحريات العامة في الدولة الإسلامية للشيخ راشد الغنوشي 1993

10 ـ مأساة مساجين الرأي في تونس من إصدار لجنة الدفاع عن المساجين السياسيين بتونس وجمعية التضامن الإسلامي (باريس 2002).

11 ـ الإتجاه الإسلامي وبورقيبة : من يحاكم من؟ وليد المنصوري 1988.

12 ـ حقائق حول حركة الإتجاه الإسلامي(من إصدارا الحركة في الذكرى الثانية للإعلان).

13 ـ الإسلام الإحتجاجي في تونس للدكتور محمد عبد الباقي الهرماسي ـ تونس 1983

14 ـ الإسلام الجريح للشيخ محمد الهادي مصطفى الزمزمي. ألمانيا 1994.

15 ـ منشورات ووثائق بعضها داخلي وبعضها منشور من مثل الفجر والمتوسط وتونس الشهيدة وصوت تونس والجرأة والمراسلة والمنشورات التي تعقب بعض المؤتمرات إلخ .

من هو المؤلف

الهادي بريك ـ تونسي من مواليد 6 جوان 1955 بمدنين

متحصل على شهادة التقنية الإقتصادية للتصرف دورة جوان 1974.

متزوج وأب لستة من الولد وسبعة من الحفدة.

إنخرطت في الحركة الإسلامية يوم 16 جوان 1976.

تحملت مسؤوليات قيادية كثيرة في الحركة منها الآن عضوية مجلس الشورى.

لازمت التخفي بسبب إنتمائي السياسي عام 1983 وسجنت عام 1987 وفررت عام 1990.

نائب رئيس جمعية مرحمة للإغاثة.

عضو مؤسس بالتجمع الأروبي للأئمة والمرشدين وعضو مجلس الأمناء.

عضو مؤسس بهيئة العلماء والدعاء بألمانيا.

إمام وخطيب بمسجد الرحمة بولاية شمال الراين بألمانيا.

كاتب في عدد من المواقع الإلكترونية منذ عام 2000 (تونس نيوز – الحوار.نت – النهضة إنفو – الإصلاح – تورس المغربية إلخ ..).

مؤلف لعدد من الدراسات والبحوث تنتظر الإخراج والنشر.